

دمبى وولده تشارلز ديكتز

ترجمة : شوقى رياض السنورسى

Source: www.liilas.com
To PDF: www.al-mostafa.com

الفصل الأول "دمبى وولده"

جلس دممبى فى ركن الحجره التى اظلمت على كرسى كبير ذى مساند بقرب الفراش . أما ابنه فكان راقداً على سرير صغير أمام النار , وقد ألفت فى غطاءه الدافئ .

وكان دممبى فى العام الثامن بعد الأربعين من عمره أما ابنه فكان قد ولد منذ ثمان واربعين ودقيقه فحسب , وكان دممبى أصلياً يميل الى الأحمرار . وكان حسن المظهر , قوى البنية , بيد أنه كان قاسياً ذا كبرياء وخيلاء فى مظهره .

ولقد كان حينئذ سعيداً بالحادث الذى ظل ينتظره رداً طويلاً من الزمن . قال مستر " دممبى " لزوجه : سوف تصبح الشركة مرة أخرى يا مسز دممبى , ليس فقط هذا الأسم ولكن فى الحقيقة والواقع أيضاً شركة " دممبى وولده " ... دممبى وولده ! وأثارت هذه الكلمات عاطفة مستر دممبى كثيراً حتى أنه أضاف كلمة "ياعزيزتى " الى اسم مسز دممبى . ولم يكن معتاد أن يفعل ذلك , ولهذا قال فى تردد :
- مسز دممبى , يا ...عزيزتى .

واحمر وجه المرأة المريضة فى عجب ودهشة .

- سوف ندعوه بول يا ...يا مسز دممبى , طبعاً .

فأجابت فى ضعف " طبعاً " ثم أغلقت عينيها مرة أخرى .

- " أنه أسم أبية , يا مسز دممبى , واسم جده ! ليت جده حتى اليوم " . ثم قال مرة أخرى : " دممبى وولده " فى نفس اللهجة السابقة تماماً .

وكانت الكلمات الثلاث تعبر عن أهم فكرة فى حياة مستر دممبى . لقد ارتفع , كايبيع من قبله , من مركز الابن الى دممبى فى اسم الشركة " دممبى وولده " . وكان قد تزوج منذ عشرة أعوام , ولكن حتى هذا اليوم , كان لم يخلف أطفالاً - أطفالاً ذوى أهمية .

كان قد انجب بنتاً فى حوالى السادسة عشر من عمرها من قبل . وكانت هذه البنت قد دخلت الى الحجره للتو فى هدوء . ولكن ماذا كانت قيمة فتاة لشركة دممبى وولده ! .

وكان مستر دممبى راضياً فى هذه اللحظة حتى أنه استطاع أن يتحدث فى رقه الى أبنته . فقال لها " يا فلورنس , أظن أنه يمكنك الذهاب والنظر الى أخيك الجميل . ولكن لا تلمسيه ! " .

وتطلعت الطفلة فى حدة الى السترة الزرقاء والرابط الأبيض المنشى . وكانت هذه بالأضافة الى زوج من الأحذية يحدث جلبة فى السير , وساعة تدق فى صوت عال , هى الأشياء التى تكون فكرتها عن الأب . ولكن عينيها تحولتا الى وجه أمها فى الحال , ولم تتحرك أو تجب . وفى اللحظة التالية , فتحت السيدة عينيها ورأت الفتاة التى جرت نحوها . وتعلقت بأمها فى حب عظيم . "يا لله " قال مستر دمى , وقد نهض غاضباً " هذا سلوك غير مناسب بالتأكيد . سوف أنزل الى الدكتور بيس " . ثم أضاف قائلاً وهو يقف برهة أمام النيران " أرجوك أن تولى هذا السيد الصغير عناية خاصة يا مسز بلوكت " .

اجل يا سيدى بالتأكيد , وأجاب الممرضة " أذكر أنه عندما ولدت الأنسة فلورنس " " نعم .. نعم " قال مستر دمى وهو ينحنى على الفراش . " ولكن هذا أمر مختلف . أن على هذا السيد الصغير أن يؤدى رسالة محترمة! " ثم رفع إحدى يدي الطفل الى شفيتها وقبلها . ولكنه لم يلبث أن غادر الحجرة مهرولاً , خشية أن تنال هذه الفعلة من كرامته وأعتداده بذاته .

وكان الدكتور باركر بيس يسير جيئة وذهاباً فى حجرة الاستقبال وقد عقد يديه خلف ظهره . - " حسناً يا سيدى " قال الطبيب فى صوت عميق رنان : " هل تجد أن صحة زوجتك العزيزة قد تحسنت بعد زيارتك لها ؟ " . وكان مستر دمى لم يفكر الا قليلاً فى زوجته المريضة حتى أنه لم يستطع الأجابة على ذلك السؤال . وعندئذ قال أنه يسره أن يتفضل الطبيب بزيارة مسز دمى فى الدور العلوى مرة اخرى . " حسناً ! لا يجب أن نخفى عنك يا سيدى " , ثم تابع الدكتور باركر بيس " أن على زوجتك أن تبذل جهداً كبيراً لكى تشفى . واذا لم تستطع مسز دمى أن تبذل هذا الجهد بنجاح , فأن ازمة ما قد تقع " . وكان مستر دمى يعرف أنه سوف يغدو حزيناً جداً لو ماتت زوجته . أن حزنه سوف يكون حقيقياً ولو أنه لن يكون عميقاً جداً .

وانقطع حبل أفكار مستر دمى بدخول سيدة متوسطة العمر , تترين على نمط الفتيات , لم تلبث أن لفت ذراعيها حول عنقه وهى تقول : " يا عزيزى بول ! أنه دمى تماماً " .

" حسناً , حسناً ! " أجاب اخوها - لأن مستر دمى كان أخواها - " أعتقد أنه يشبه العائلة . ولكن ماذا عن " فانى " نفسها ; كيف حال فانى ؟ .

" يا عزيزى بول " , أجابت لويزا " لا شئ بالمرّة . هناك ضعف ما . ويلزمها بذل شئ من الجهد , ولكنها شوف تبذله حين تعرف أن ذلك واجبها " . "

وأتبع هذه الكلمات بطريقة خفيفة على الباب . ثم قال من الخاجر في أدب بالغ :
" مسز تشك , كيف حالك الآن يا صديقتى العزيزة ؟ " .

" ياعزيزى بول " , قالت مسز تشك " أهما الأنسة توكس , صديقتى الخاصة " .
وكانت هذه السيدة ذات وجه طويل نحيل شاحب اللون . وكان لها صوت بالغ النعومة , كما أنفها حادة مستقيمة .

" أن التعرف على مستر دمى هو بالتأكيد شرف كنت أنتظره طويلا " - قالت مس توكس . غير أن مستر دمى كان قد أستدعى الى خارج الحجرة على عجل فى تلك اللحظة . ولم تلبث أخته أن صاحت قائلة عندما عاد :

- ماذا يا عزيزى بول ! أنك تبدو شاحباً جداً ! أ يوجد فى الأمر شئ ؟ .
يجزنى أن اقول يا لويزا أنهم يقولون أن " فاني "

" والأن يا عزيزى بول " . قالت أخته وهى تنهض , " لا تصدق هذا الأمر . هيا معى الى الطابق الأعلى " .
وتبعها مستر دمى فى هذا الحال الى غرفة زوجته المريضة .

وكانت السيدة مستلقية على فراشها , وقد أمسكت بأبتها الصغيرة بشدة .
" لقد كانت قلقة بدون الفتاة الصغيرة " . همس الطبيب لمستر دمى .

وساد وجوم كئيب حول الفراش .

" فاني يا عزيزتى " , قالت مسز تشك " هاك مستر دمى قد اتى ليرالك , ألا تتكلمين معه ؟ " .
ولم تنبس المريضة ببنت شفه .

وأنحنى الطبيب , وهمس فى أذن الطفلة . ولم تفهم الطفلة معنى لهمسه , وتحولت اليه بوجهها الشاحب وعينيها الداكنتين . غير أنها لم تترك أمها .

وعاود الطبيب الهمس .

" ماما " . قالت الطفلة .

وأستيقظت الأم لبرهة وجيزة . وارتعشت جفناها , وظهرت أبتسامه باهتة على وجهها .

" ماما " صاحت الطفلة بصوت عال : " يا حبيبتى ماما ! يا حبيبتى ماما ! " .

وهكذا أنطلقت الأم , وهى تحتضن طفلتها , فوق البحر المظلم

المجهول الذى يحيط العالم بأسره ماتت مسز دمى .

الفصل الثانى " بعد الجنازة "

عندما أنتهى المأتم , امر مستر دمبى أن تغطى أثاث المنزل , وتركت جميع الغرف , عدا تلك التى كان يستعملها فى الدور الأرضى .. عارية من التحف والزينة .

والغرف التى كان يشغلها مستر دمبى كانت تتألف من غرفة للجلوس , ومكتبة كانت تستخدم فى الواقع كغرفة لأرتداء الملابس , وغرفة زجاجية لتناول طعام الإفطار . وكانت الغرف الثلاث تؤدى كل منها الى الاخرى . وفى الصباح , عندما كان مستر دمبى يجلس الى مائدة الإفطار , وبعد الظهر , حين كان يحضر لتناول الغداء , كان الجرس يدق لأستدعاء " بوللى رتشاردز " المربية الى الغرفة الزجاجية حيث كانت تسير جيئة وذهاباً مع بول الصغير .

وفى ذات يوم , بينما كانت رتشاردز جالسة فى غرفتها الخاصة , فتح الباب ببطء وهدوء , ونظرت فتاة ذات عينين داكنتين الى الداخل .

- أهما مس فلورنس فد عادت من منزل عمته دون شك " . ظنت رتشاردز التى كانت لم تر الفتاة إطلاقاً من قبل - " هل هذا هو أخى ؟ " سألت الطفلة وهى تشير الى المولود الصغير .

- أجل يا جميلتى " , أجابت رتشاردز , " تعالى وقبله " . ولكن الطفلة لم تأت , بل نظرت الى رتشاردز فى جد وقالت :

- " ماذا فعلت بماما ؟ " .

- ياله من سؤال حزين ! . قالت رتشاردز " هل أنا التى فعلت ؟ لا شئ يا أنسة " .

- " ماذا فعلوا بماما " , سألت الطفلة ؟

- " يا حبيبتي , قالت رتشاردز " أنت ترتدين هذا الرداء الأسود الأنيق تذكرآ لامك " .

- أننى أستطيع أن اذكر أمى ... أجابت فلورنس والدوع فى عينيها , " فى أى رداء أرتديه " .

كانت الطفلة رقيقة هادئة فى حزنها وانفرادها , وكان قلبها مشحوناً يجب كثير لم يبد على أحد أنه يريد , حتى ان قلب " بوللى " أفهم بالحزن عندما تركت بمفردها مرة أخرى .

وحاولت " بوللى " أن تفكر فى طريقة ما لابقاء فلورنس الصغيرة معها . ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة لذلك فى نفس الليلة .

فلقد أستدعت للزول الى الغرفة الزجاجية كالمعتاد , وسارت فيها وهى تحمل الطفل الصغير جيئاً وذهاباً لفترة طويلة . وبعدئذ نهض مستر دمبى فجأة ووقف أمامها .

- مساء الخير يا رتشاردز .. كيف حال السيد بول ؟ .
- فى خير حال يا سيدى .
- ولكنها ترددت فجأة , حتى أن مستر ديمى وقف ينتظر ما سوف تقول , بعد أن كان قد تحول بعيدى عنها .
- أعتقد أنه ليس أجدى على الأطفال لجعلهم مرحين مبتهجين من رؤية الأطفال آخرين يلعبون بجوارهم , قال بوللى :
- إذا كنت تظنين حقيقة أن هذا مفيد للطفل , قال فى غضب " اين مس فلورنس ؟ " .
- ليس هناك من هو أفضل من مس فلورنس , يا سيدى .
- ولما أتت فلورنس الصغيرة فى وجل وتردد , توقف مستر ديمى عن السير جيئة وذهابى , ثم تطلع نحوها . ولو كان قد نظر إليها حينئذ بأهتمام أكبر وبعين الأب الحنون , لكان قد فهم لماذا أجفلت وترددت . لقد كانت لديها الرغبة القوية العارمة فى أن تبدو أليه وتلتصق به وهى تصيح " يا أبتاه , حاول أن تحببني " . ولكنها كانت تخشى أن يردّها خائبة ..على أن مستر ديمى لم يكن يدرى شيئاً من ذلك .
- " أدخلى .. أدخلى " قال مستر ديمى " مما تخاف الطفلة ؟ " .
- ودخلت الطفلة , غير أنّها وقفت الى جوار الباب .
- " تعال الى هنا يا فلورنس " , قال والدها ببرود : هل تعرفين من أنا ؟ .
- " نعم يا بابا " .
- أليس لديك ما تقولينه لى ؟ .
- وقفت الدموع فى عيني الطفلة . ونظرت الى أسفل , ومدت له يدها المرتعشة .
- " هيا ... هيا... كوني بنتى طيبة ... هيا اذهبي الى رتشاردز " .
- ولما حان الوقت للصعود الى الدور العلوى مرة أخرى , أرادت بوللى أن ترسل فلورنس الى الغرفة الداخلية لتقول لوالدها " ليلة سعيدة " قبل الذهاب الى الفراش . ولكن الطفلة كانت خجلة وغير راغبة فى الذهاب .
- " أوه كلا , كلا , أنه لا يريدني ! " صاحت الطفلة , ثم لم تلبث أن اختفت قبل أن تتلفت صديقتها المتواضعة حولها مرة أخرى .

الفصل الثالث " خسارة بول الثانية "

وفي يوم يعتمد بول , امر مستر دمبي رتشاردز أن تأتي اليه .

- لقد قمت بواجبك على وجه مرض رتشاردز في خلال ستة شهور التي قضيتها معنا .. ثم تابع مستر دمبي " ولقد كنت افكر كيف أؤدي لك خدمة صغيرة . ولهذا فأني أعد الترتيبات لأرسال أبنيك الصغير لأحدى المدراس الخيرية حيث سوف يتسلم زياً خاصاً يرتديه ويتلقى قدراً طيباً من التعليم . "

- أني شاكرة لك جداً يا سيدي . وفي تلك اللحظات أرسمت أمام عينيها صورة أبنيها " بايلر رتشاردز عندما عادت الى غرفة الأطفال .

- أذن فلسوف أحريك بما تفعلين يا ميز رتشاردز ... " أجابت نير " التي كانت تتولى أمر العناية بفلورنس " أذهبي لتريه حتى يهدا خاطرك " .

- قد لا يجب مستر دمبي ذلك - أظن انك لا تستطيعين سؤاله ؟ . قالتها لها بوللى .

- كلا يا مسز رتشاردز .. وتباعت سوزان " ولكن أنا ومس فلوى سرنا أن نصحبك هذه المهمة في الصباح الباكر " .

ولم تكن بوللى راغبة في قبول تلك الفكرة بادئ الأمر , اذ كان محظوراً عليها رؤية بيتها وأطفالها . غير أنها لم تلبث أن قبلت اقتراح " نير " ظناً منها أنه لن يكون هناك ثمة ضرر كبير في الوقوف الى باب بيتها برهة صغيرة . وهكذا خرجت أربعتهم , ومن بينهم بول الى منزل رتشاردز , الذي كان يستقر في جزء فقير جداً من أجزاء مدينة لندن .

وعندما اكتشف النسوة أن بايلر ليس في المنزل , صممن على الذهاب والبحث عنه . وبعد مسيرة ساعة , رأته بوللى متبوعاً بواسطة جماعة من صغار لأوباش يسخرون من زيه المدرسى . وللتو ناولت المرأة السيد دمبي لسوزان , وجرت لأنقاذ ابنها التعس .

والمفاجآت , كالنواب , نأدرآ ما تأتي فرداى .. ذلك أن " سوزان نير " المنذهلة ووديعتها " أى بول وفلورنس " سرعان ما أنقذوا بواسطة بعض الواقفين في الطريق من تحت عجلات عربة مارة قبل أن يعرفوا ما حدث لهم , وفي تلك اللحظة " وما كان اليوم هو يوم السوق " أنطلقت صيحات عالية تقول " أحذروا الثور المجنون " .

وحدث هرج واضطراب شديدان , وجرى الناس في كل اتجاه وهو يصيحون , وصاحت فلورنس في فرغ وجرت بعيداً حتى تقطعت أنفاسها . ولما توقفت , وجدت الرعب يجتاحها ألها أصبحت منفردة تماماً .

- سوزان ! سوزان ! . صاحت فلورنس " أوه , أين هم ! أين هم ! " .

- " أين هم ؟ " قالت امرأة عجوز , أتت تعرج ناحو الفتاة بأقصى سرعة ممكنة لها " لماذا جريت بعيداً عنهم ؟ "

- " لقد تولاني الفرغ . وظننت ألهم معى , أين هم !؟ " .

أما المرأة العجوز , وقد كانت تتدعى باسم مسز بروان الطيبة . فقد تناولت الفتاة من يدها وقالت " سوف أريك " .

وكانت شمطاء قبيحة الشكل جداً , ذات حلقات حمراء حول عينيها , وترتدى ملابس رثة .

- وقالت لها السيدة العجوزة " لا داعى لأن تزعجى الآن , تعالى معى " . كانت ممسكة بيدها , وهى تقول لها ذلك .

واستدار فى شارع ضيق قدر . ووقفت المرأة العجوز أمام منزل صغير عتيق . ودفعت الطفلة أمامها فى غرفة خلفية بها كوم كبير من الخرق من مختلف الألوان , ولكنها عارية من الأثاث , وذات حوئط سوداء تماماً .

وأرتعدت الطفلة خوفاً حتى ألها لم تستطع الكلام , وبدت كأنها على وشك الأغماء .

- " لا تثيرى غضبى " , قالت مسز بروان الطيبة " اذا لم تفعلى ذلك , فلن أوذيك . ولكن اذا فعلت فسوف أقتلك , والآن اخبرينى من أنت ؟ " .

واخبرتها فلورنس بقصتها . وانصتت مسز بروان فى اهتمام حتى أتمت الفتاة كلامها .

- اذا فاسمك دمى ...ها ؟ . وتابعت مسز بروان " أننى اريد هذا الفستان الأنيق وهذه القبعة وهذا القميص .هيا ! أخلعى هذه الأشياء

وأطاعت فلورنس الامر بأسرع ما استطاعت يداها المرتعشتان .

- " أحم " قالت مسز بروان , وهى تتطلع الى جسد الطفلة الصغيرة " أننى لا أرى شيئاً اخر سوى الحذاء . لابد وأن آخذ الحذاء يا مس دمى .

وبعد ذلك قدمت المرأة العجوز لفلورنس بعض الملابس القديمة من أسفل كوم الخرق , وأمرتها بأرتدائها . ثم أخبرتها بأنها سوف تأخذها الى شارع عمومى تستطيع الطفلة فيه أن تسأل عن أصحابها . وحذرهما العجوز من الذهاب مباشرة الى مترها , وامرهما بالتوجه الى مكتب والدها فى المدينة , وبالأنتظار عند ركن الشارع حتى تدق الساعة الثالثة .ثم هددتها بالأنتقام اذا لم تتبع أوامرها .

وما أن دقت الساعة الثالثة , حتى سارت فلورنس في طريقها بأقصى سرعتها . وكل ما كنت تعرفه عن مكاتب أبيها أنها بأسم " دمبي وولده " وأنها توجد في المدينة . وتعبت الفتاة من السير , وكانت مرتعبة من الضوضاء , وقلقة بخصوص أخيها والمريتا , ومرتعدة لما حدث لها . ووقفت مرة أو مرتين في الطريق لتجهش بالبكاء .

وبعد ذلك بساعتين عصري , اتت الفتاة الى مرسى الى جانب النهر , حيث كانت تُلقى صناديق وطرود عديدة .

- " أخبرني لو سمحت : هل هذه هي المدينة ؟ " .

- فأجابها رجل بدين " أنها المدينة " . ثم وضع يديه في جيبيه " أنت تعرفين ذلك جيداً ..هيا ابتعدى عن هذا المكان ! ليس لدينا ثمة ما نعطيهِ لك " .

- " اشكرك . أنا لا أريد اى شئ سوى أن أعرف طريق مكاتب شركة دمبي وولده " .

- " يا جو " صاح الرجل منادياً رجل اخر : " أين ذلك الشاب الذى يتبع شركة دمبي والذى يلاحظ شحن السفن ؟ ناده " .

وعندئذ ظهر غلام مرح ضاحك , وجرت فلورنس اليه .

- " لقد ضللت الطريق وهمت بعيدي , هذا الصباح . أن اسمي فلورنس ...ارجوك ..أرجوك ان تعتنى بأمرى لو سمحت ! " .

وأنفجرت الفتاة في البكاء . وفي نفس الوقت وقعت قبعتها القديمة وانسدل شعرها على وجهها . أما " والترجاي " الصغير فقد تحرك فيه شعور الاعجاب الشديد حتى أنه لم يستطع الكلام .

- " لا تبكى يا مس دمبي " . وأكمل والتر " يا له من شئ رائع لى أن اكون الآن في هذا المكان . أنت الآن في أمان , أوه لا تبكى "

وهكذا قاد والتر الفتاة بعيداً عبر الشوارع , وقد بدا سعيداً جداً , حتى وصلا الى باب " سول جلز " , عم والتر الذى كان يشتغل صانع أدوات للسفن .

- " كيف حالك يا عم سول ! " . صاح والتر وهو يفتحهم الدكان " هاك مغامرة رائعة . هذه ابنة مستر دمبي , وقد تاهت في الشوارع واحذت ملابسها امرأة عجوزة شريرة " .

فربت العم سولومون جلز على رأس فلورنس , ورجاها أن تأكل وتشرب , وذلك قدميها بمنديله بعد أن دفأه على النار . وعندئذ غلب فلورنس النعاس فنامت أمام المدفأة .

وفي خلال تلك الأثناء , كان والتر قد ذهب الى منزل مستر دمبي .

"أوه . عذراً يا سيدى . أنى سعيد بأن اقول أن كل شىء على ما يرام يا سيد ديمى ... لقد وجدت مسز ديمى ! .

"أستمعين هذا يا فتاة ! . مستر ديمى موجه كلامه الى سوزان " خذى ما يلزم , وأذهبى فى الحال مع هذا الشاب لأحضر مس فلورنس الى المتزل . أما أنت يا جاي فسوف أكافئك غداً " .

وأحدثت عودة الطفلة الضائعة انفعالا طفيفاً فى جو المتزل . ورتشاردز فقط المذنبه , هى التى تلتقتها بالترحاب والدموع , وقد أنخت فوق رأسها الصغير كما لو كانت تحبه حقاً .

- " أن هذه المرأة مطرودة " صاح مستر ديمى : " سوف تغادرين هذا المتزل يا رتشاردز جزاء اخذك أبنى الى أماكن مريعة مريعة . أما عن الحادث الذى وقع لمس فلورنس فى الصباح فأنى اعتبره حادثاً سعيدى طيباً من ناحية ما . فلولاء لما أستطعت أبداً أن اعرف أفعالك الطائشة " .

وتحركت بوللى نحو الباب , وفلورنس ممسكة بردائها , وهى تبكى لفراقها فى صورة محزنة , وتتوسل إليها الا تذهب .

وبكى ابن مستر ديمى كثيراً فى تلك الليلة , لانه قد فقد أمه الثانية .

الفصل الرابع " نظرة سريعة على منزل مس توكس , وأحوالها العاطفية "

كانت مس توكس تعيش في منزل صغير مظلم كان قد أقيم على حى راقى في الطرف الغربى من المدينة . وكان هذا المنزل يقف متواضعاً مستخدماً في أحد أركان الشارع الفخم , والبيوت الضخمة من حوله تطل عليه من عليائها في برود واستهزاء .

وكان هناك منزل خاص اخر بالأضافة الى منزل مس توكس فى نفس المكان . وكان يعيش فيه رجل اعزب , صارم المظهر , ازرق لون الوجه .يعمل ضابط برتبة ميچور . وكانت مس توكس والميچور يتبادلان الصحف والكتب فى بعض الأحيان .

وعلى الرغم من أن الميچور باجستوك كان قد تعدى منتصف العمر , الا انه كان فخورى جداً بالاعتقاد أن مس توكس واقعه فى حبه .

وهذا الميچور كان على أية حال رجلاً أنانيا . وكان لا يتوَصر اطلاقى انه من الممكن أن يتجاهله اى شخص , ولا سيما اذا كان هذا الشخص هو مس توكس .

ومع ذلك , فأن مس توكس , على ما يبدو كانت قد نسيته . فأن شيئى أو شخصى آخر قد أستحوذ على ما كان من أهتمامها .

- صباح الخير يا سيدتى .قال الميچور عندما قابل مس توكس فى الشارع ذات يوم .

- صباح الخير يا سيدى .

- لم اسعد الأتثناء لك فى النافذة منذ وقت طويل طويل .

وأحنت مس توكس رأسها , ولككن فى برود شديد , ثم قالت :

" لقد كنت مشغولة جدى فى الأيام الاخيرة . أن وقتى مكرس كله تقريباً لبعض الأصدقاء الحميمين .

وأخشى الا يوجد لدى وقت لأضاعته الآن أيضا . عم صباحاً يا سيدى ! "

وبينما اختفت مس توكس , وقف الميچور يتطلع نحوها وقد غمقت زرقة وجهه .

على ان تغيرات آخر كانت قد وقعت أيضاً . فأن الميچور استطاع أن يرى وهو واقف فى ظل غرفته

الخاصة , أن منزل مس توكس قد اكتسى حلة من الرونق والنظام لم تكن تبدو عليه من قبل .

وفوق كل ذلك , كانت مس توكس قد شرعت حينئذ فى ارتداء ملابس الحداد الخفيف فى عناية فائقة .

أن هذه الملاحظة الاخيرة ساعدت الميچور فى الوصول الى تعليل يريجه من حيرته وانشغال باله .

فلقد استقر ظنه اخيراً على أنها قد ورثت مالا واصبحت لذلك متعجرفة .

وفي اليوم التالي مباشرة لاستقرار الميجور على هذا الزعم , رأى الرجل شيئاً غريباً في غرفة استقبال مس
توكس الصغيرة , بينما كان جالساً يتناول طعام افطاره , حتى انه تسمر عجباً الى كرسيه . ولم يلبث أن
هرع الى الغرفة المجاورة , وأتى بنظارة المسرح ذات العدسات القوية , واخذ ينظر من خلالها لعدة دقائق

." أنه مولود صغير . " قال الميجور وهو يخاطب نفسه .

وتملكت الرجل دهشة عارمة . ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يصفر ويحلق . ويوماً بعد يوم ,
كان هذا المولود يعاود الظهور في غرفة مس توكس , مرتين وثلاث واربع في الأسبوع . وفي كل مرة
كان الميجور يعاود الصغير والبلقة .

والأهتمام والحرص اللذان كانت مس توكس ترعى بهذا الطفل الصغير , وتؤدي واجباته , وتطعمه ,
وتلعب معه , كان عظيمين ومبالغاً فيهما . وفي نفس الوقت كانت المرأة تنظر بعاطفة فياضة الى سوار
أعطاه لها مستر دمي في حفلة تعميد بول , كما كانت تتطلع في عاطفة فياضة الى القمر . ولكن أيا كان
اخذت تنظر اليه: الشمس او القمر أو النجوم أو السوار , فألها لم تعد تنظر الى الميجور . أما الميجور
فلم يستطع أن يفهم شيئاً من الامر .

- سوف تكسين تماماً قلب أحى بول , يا عزيزتى ... قالت مسز تشك ذات يوم .
وشحب وجه مس توكس .

- ان شبهه بأبيه بول يقوى ويزداد كل يوم .

ولم تعط مس توكس جواباً آخر سوى أن اخذت بول الصغير في ذراعيها وقبلته .

- " وأمه , يا عزيزتى . " قالت توكس " الا يشبهما في شئ ما ؟ " .

- كلا على الإطلاق .. أجابت مسز تشك .

فتأوهت مس توكس في عمق .

- أنت ايها الملاك ! صاحت مخاطبة بول الصغير " أنت يا صورة من أبيك ؟ " .

ولو كان الميجور قد عرف كم من الآمال والأفكار تستقر على رأس ذلك الطفل الصغير , لكان حقاً قد
تفرس في عجب شديد .

الفصل الخامس " التقدم التالى لبول , ونموه , وشخصيته "

وأنتقل بول من المهدي الى مرحلة الطفولة , وأضحى يتكلم ويمشى , ويتجول هنا وهناك . غير أن كل ما تلقاه من عناية ورعاية لم يفلح في جعله ولدى قوياً كان رقيقاً بطبيعته وربما كان قد شعف أكثر من الحزن بعد طرد مربيته .

وهكذا كبر بول حتى شارف لخامسة من عمره . وكان ولدى صغيراً جميلاً , على الرغم من وجود علائم للحزن والتعب على وجهه الصغير . وكان يبدو مرحى لغوباً كالأطفال في بعض الأحيان , ولكن في أحيان أخرى كان يتخذ صورة غريبة من السكون والتفكير العميق لا تتلاءم وسنه الصغير . وكان يبدو في تلك الخال بنوع خاص , عندما كان يجلس الى المدفأة مع والده بعد العشاء . وفي إحدى تلك المناسبات , وبعد ان ظل , هو هو ابواه صامتين تماماً لفترة طويلة , قال بول الصغير:
- بابا , ماهى النقود ؟

- الذهب , والفضة , والنحاس . الجنيهات , الشلنات , البنسات ! انت تعرف ما هي ! .

- اوه نعم .. انا اعرف ما هي . وتابع بول " أنا لا أقصد ذلك يا ابى .. أنا اعني ما هي النقود بعد كل هذا ؟ أقصد ماذا تستطيع أن تفعل ؟ " .

وكم كان وجه الطفل يبدو عجوزاً وهو يرفعه نحو وجه والده .

- سوف تعرف ذلك في المستقبل يا رجلى .. وتابع مستر دمبى " النقود , يا بول , تستطيع أن تفعل بها اى شئ " .

- اى شئ يا بابا ؟

- أى شئ .

- لماذا لم تبقِ النقود أمى لى ؟ . أنها ليس قاسية , أليس كذلك ؟

- قاسية ؟ كلا الشئ الطيب لا يمكن ان يكون قاسياً .

- اذا كانت النقود شئ طيباً , وتستطيع ان تفعل اى شئ ... فلماذا لم تبق لى أمى ؟

وأخذ الطفل يكرر هذه الفكرة بصوت عال , كما لو كانت فكرة قديمة لديه , قد شغلت باله كثيراً .

ولما أفاق مستر دمبى من دهشته وفزعه " لانه هذه كانت المرة الأولى التي تحدث فيها ولده عن أمه " اخذ

يشرح للطفل كيف أن النقود , على الرغم من كونها قوة هائلة , لا تستطيع أن تبقى الحياة على الناس .

- " وهى لا تستطيع كذلك أن تجعلنى قوياً وفي صحة جيدة تماماً , هل تستطيع يا أبى ؟ " .

- لماذا؟ أنت قوى وفي صحة جيدة تماماً... اليس كذلك؟

- فلورنس اكبر منى سنآ . ولكننى لست قوياً صحيحاً كفلورنس , أننى اعرف ذلك . كم أننى احس أحياناً بالتعب الشديد , كما أن عظامى تؤلمنى .

- أه , ولكن هذا يحدث بالليل . - ثم وضع مستر دمبى يده برقه على ظهر الطفل ... أن الصغار يكونون عادة متعبين فى الليل , وعندئذ ينامون جيدآ .

- أوه , ان هذا لا يكون ليلا , يا أبى أنه يحدث فى النهار , وأنا أرقد حينئذ فى حجر فلورنس , وهى تغنى لى ... وفى الليل أحلم بأشياء غريبة .

ودهش ميتر دمبى وتولاه الضيق , حتى أنه لم يستطع أن يفعل شيئى سوى أ , يجلس متطلعآ الى ولده على شوء نيران المدفأة . ولما ظهرت المربية لتدعو الطفل الى فراشه , قال بول " اريد فلورنس أن تاتى معى "

.

وللحال ظهرت فلورنس , فقفز الطفل للتو من مكانه فى رضاء وحيوية مفاجئة .

وبعد أن غادرى الغرفة معى , خال لمر دمبى أنه سمع صوتآ ناعماً يعنى , فتذكر ما قاله بول من أن اخته تغنى له . وتملكه فضول ففتح الباب وأنصت , وتتبعهما بعينيه .

كانت الفتاة تصعد الدرج الضخم الخالى ببطء , والولد فى ذراعيها . وكانت رأسه ملقاة على كتفها , وذراعه ملتفة حول عنقها ونظر مستر دمبى إليهما حتى اختفيا عن بصره , ولكنه ظل واقفا ينظر الى أعلى فى اتجاههما .

ودعا مستر دمبى تشك ومس توكس للغداء فى اليوم التالى طلبآ لمشورتهما . كان يريد مستر دمبى ان يعرف ما خطب بول .

- " ان عزيزنا ليس قوياً تماماً كما تحب " , وتابعت مسز تشك " الواقع أن عقله أكبر من جسمه وسنه . ولكن لا يوجد هناك ما يقلقك ويشغل بالك , فأن غيابه بعض الوقت عن هذا المنزل , وهواء بريتون , والرعاية الجسدية والعقلية لشخص حكيم مثل مسز بيبكين مثلاً

- من هى مسز بيبكين؟ يا لويزا؟ .

- ان عندها مدرسة داخلية لأطفال من أفضل نوع .

وكانت مسز بيبكين الشهيرة سيدة عجوزة غير سارة . وكانت لها شهرة عامة كمديرة حاذقة لأطفال . أما السر وراءه " أدراهما الحاذقة فكان أنها تعطيهم كل ما لا يرغبون فيه , وتحرسهم من كل شئى يجبونه . وبعد ثلاثة ايام من ذكر مسز تشك لاسم مسز بيبكين , أخذت مسز تشك ومس توكس فلورنس وبول الى بريتون .

- " حسناً , سيدى " قالت مسز بيبكين لبول .. " كم تظن أنك سوف تجبني ؟ " .
- لا اظن أننى سوف أحبك اطلاقاً .. اننى أريد الذهاب بعدياً , هذا ليس منزلى .
- كلا , أنه منزلى انا .
- أنه منزل كئيب .
- ومع ذلك فان به مكاناً أردآ مما ترى ... حيث نحبس فيه الأطفال الأشقياء .
وكان الغداء يقدم فى الساعة الواحدة , وكان يتالف أساسا من النشويات والخضروات . اما مسز بيبكين , التى كان جسدها يحتاج الى غذاء دسم , فقد كانت تتناول من شرائح لحم الضأن , تقدم أليها ساخنة وقد فاحت رائحتها الطيبة . وفى الوقت المخصص لتناول الشاى كانت مقادير كبيرة من اللبن والماء والخبز والزبد لأطفال . غير أنهم كانوا يقدمون لمسز بيبكين وعاءاً خاصاً مليئاً بالشاى مع كمية كبيرة من الخبز المقدد الساخن المدهون بالزبد .
أما عن الإفطار فى اليوم التالى فقد كان شبيها بالشاى .
وبعد الافطار , كانت مسز بيبكين تشرف على بعض الدروس وكان من طريقه مسز بيبكين فى التعليم الا تساعد عقل الطفل على تكوين ذاته كالزهرة الصغيرة , بل تفتحه عنوة كما تفتح بعض الأصداف الصلبة ذات شقين .
وهكذا كانت الدروس الأخلاقية لمنهجها من نوع صارم عنيف . وكان بطل القصة فى الدروس , على سبيل المثال , ولدآ شقيآ متمردآ ينتهى امره بأن اكله أسدآ او ذئب .
هكذا كانت الحياة فى مدرسة مسز بيبكين . وكان بول يجلس ويظيل النظر الى تلك المرأة العجوز , وكان لا يبدو متعباً أبداً عندما كان يتطلع أليها متفرساً . ولم يكن الطفل مغره بها , ولم يكن فى نفس الوقت خائفى منها , ولكنها كانت تبدو جذابة اليه فى حالات شروده وتأمله التى كانت كثيراً ما تتملكه وتعتريه . كما كان بول - فى ذات الوقت - ذا جاذبية غريبة من نفس النوع كذلك بالنسبة اليه .
ولما لم تتحسن حال بول فى نهاية الأسبوع الأول عما كانت عليه عندما حضر مدرسة مسز بيبكين , فقد اوا له بعربة صغيرة ذات عجلات كانوا يدفعونها به الى شاطئ البحر .
وكان مكانه المفضل على الشاطئ بقعة منعزلة . وكان لا يريد اكثر من أن يجلس هناك وفلورنس الى جواره والرياح تمب على وجهه .
وذات يوم نام فى ذلك المكان , وما أن استقظ فجأة , حتى أنتفض وجلس يتسمع .

- ارید ان اعرف ما یقول , قال وهو ینظر فی ثبات الی فلورنس ..هذا البحر , یا فلوی ماذا یقول بأستمرار ؟ أننی اعرف أن الامواج تقول شیئاً ما . وهی تقول نفس الشئ دائماً . ما هذا المكان الذی هناک ؟ ..وهض الولد یتطلع بشغف الی الأفق .
وقالت له أخته ان هناک بلاداً أخرى علی الشاطئ القصی من البحر , ولكنه قال أنه لا یقصد ذلک وإنما یرید أن یعرف ماذا یوجد بعیدی جداً - ابعء من ذلک کثیراً ! .
وبعد ذلک , کان کثیراً ما یتوقف الصبی أثناء الحدیث , لیسال عن الشئ الذی کان یخال ان الأمواج تکرره دائماً ابدآ , وکان کثیراً ما ینهض مستندآ الی وساته , لیتطلع الی الأمام , نحو تلك البقاع البعیده الی لا ترى .

الفصل السادس " سول جنز فى مأزق "

كان لدى " والتر جاى " حنان كبير للمكان الى قابل فيه فلورنس , وللشوارع التى مر فيها سويآ فى طريقهما الى المنزل . وقد أخذ يبدو أكثر أناقة فى ملبسه عقب تلك المناسبة التى لا تُنسى . ولقد كان بالتأکید يجب أن يسير فى أوقات فراغه نحو ذلك الجزء من المدينة , حيث كان يقع منزل مستر دمبى , لعله أن يقابل فلورنس الصغيرة وهى تمر فى الشارع .

وهكذا حدث خلال العام أن رفع والتر قبعته لفلورنس حوالى ست مرات عند رؤيتها فى الشارع , وكانت فلورنس فى كل مرة لتصافحه .

هذه كانت حال والتر فى الوقت الذى كان فيه بول بمدرسة مسز بيبكين.

وفى ذات صباح , لاحظ والتر أن عمه لم يتناول أفطاره .

- ماذا يشغل بالك يا عمى ؟ زبائن ؟

- " آى " , أجابه وهو يتنهد .

- لا تكثب هكذا يا عمى . عندما تأتى الطلبات على البضاعة فسوف تكون كثيرة حتى أنك لن تستطيع الوفاء بها .

- سوف تكون حينئذ قد أتت متأخرة , يا بنى . ثم تابع قائلاً : أنها لن تأتى لهذا المحل مرة أخرى حتى أكون أنا قد خرجت منه .

- لا تقل هذا يا عمى

وحاول سول العجوز أن يبدو مرحاً , واخذ يبتسم لوالتر بقدر ما أستطاع . ولما عاد والتر مكاتب " دمبى وولده " دهش لأن يجد مستر بروجلى , الحارس , جالساً فى مؤخرة الجلوس .

- ما الامر ؟

- الواقع أن هناك ديناً صغيراً قد تأخر أدائه , ولقد وضعت يدي على المحل

- " واللى , يا بنى " صاح العم سول , " مثل هذه الكارثة لم تقع لى إطلاقى من قبل " ووغطى الرجل وجهه بيده وأجعش بالبكاء بصوت عال .

- " يا عم سول ! عاهدتك الله لا تفعل ذلك .. ثم ادرا وجه لمستر بروجلى , وقال " ماذا أفعل ؟"

- اذهب الى صديق لك واحسم معه الامر .

- " أنتظر ريشما أعود الى كابتن كابتن كتل .." قالها والتر , وهو يجرى من خارجاً من الدكان بأقصى ما يستطيع .

وعندما وصل والتر الى مسكن " الكابتن " وقرع الباب , كان " الكابتن " ينظر من إحدى نوافذه الأمامية الصغيرة . وكانت يد " ند كتل " تشبه خطافاً قد ألصق بمعصمه , كما كان له حاجبان كثيفان أسودان . وكان يحمل عادة عصاة ثقيلة في يده اليسرى . لقد كان كتلى بحارى أو قبطاناً .
- كيف حال جلز ؟ . سأل الكابتن .

وعندما اخبره والتر بالأمر , افرغ الكابتن كل ما كان لديه من نقود من صندوق معدنى صغير " وكان ذلك المال يبلغ الثلاثة عشر جنيهاً والشلنين والست بنسات عدأ " ووضعه في أحد جيوب سترته الزرقاء . وهناك وضع أيضاً ملعقتى شاي قديمتين , وساعة فضية كبيرة وأداة عتيقة لألتقاط قطع السكر من آنيها . ثم أعاد تعديل وضع الخطاف الى معصمه الأيمن , واخذ عصاه وامر والتر أن يأتي معه .
ولما وصلا الى باب سول العجوز , هرع القبطان الى مؤخرة حجرة الجلوس .

- " يا جلز " , قال القبطان " سوف نحارب معاً للخروج من هذا المأزق ..من هو الدائن ؟
- أسكت , لا تتحدث أمام واللى . لقد أتى هذا الدين ضماناً لأبيه . ولقد دفعت قدرآ كبيراً منه ياند ولكن الظروف الآن قد ساءت معى حتى أننى لا أستطيع أن ادفع شيئاً اخر . يحسن أن يباع ما يحويه المحل من بضاعة فإنه يساوى أكثر من الدين .. كما يحسن أن اذهب أنا ومعى باقى النقود , لأموت في مكان اخر

وسار الكابتن كتلى جيئةً وذهاباً فى الدكان لوقت ما , وهو يفكر بعمق .
- يا والتر , لقد واصلت الى حل . أن صاحب المحل الذى يوظفك هو الشخص الذى يقرضنا النقود .
- تقصد مستر دممى

- أسرع أولاً الى المكتب لترى اذا كان موجوداً هناك .
وعاد والتر بعد فترة وجيزة ليقول أن مستر دممى ليس هناك لقد كان اليوم هو يوم السبت , وكان مستر دممى قد ذهب الى بريتون

وأستأذن القبطان بسرعة من " سول جلز " , وذهب مع والتر الى بريتون

الفصل السابع " بول يعرف قيمة المال "

بعد أن نظر " مييجور باجستوك " طويلاً وكثيراً الى بول من خلال نظارة المسرح , وبعد أن تلقى تقارير يومية , وأسبوعية وشهرية بخصوص ذلك الأمر من خادمه الذى كان يعرف خادمته مس توكس , صمم " الميجور على التعرف الى مستر دمبى

ولما حمل اليه الخادم النبأ بأن مس توكس قد ذهبت الى بريتون وبأن بول فى مدرسة بيكيين , وجد الميجور الفرصة التى أنتظر طويلاً أن تسنح

ونزل الميجور الى بريتون , وهناك قابل بول وفلورنس , فى صحبة رجل تبدو عليه الوجة والاهمية ووقف الميجور يلاحظهم معجباً بهم

- " أن صديقى الصغير هنا , يا سيدى " وتابع الميجور كلامه لمستردمبى " يجعلنى أحس بالشباب مرة أخرى جندي قديم يا سيدى - هو الميجور باجستوك الذى كفى خدمتك - لا ينجل من الاعتراف بذلك أن لى الآن شرف التحدث الى مستردمبى على ما أعتقد ؟

- أننى الممثل الحالى الغير جدير لذلك الأسم , يا مييجور ...رد عليه دمبى
- وحق الله , يا سيدى انه لاسم عظيم . قسماً بالله أنه لأسم عظيم
- أنك من الطيبة لأن تقدره ربما بأكثر مما يستحق يا مييجور ..
- هل ستبقى هناك يا مستردمبى

- أننى احضر عادة مرة كل أسبوع , وسوف أنزل بفندق بيدفورد
- شوف يكون لى شرف زيارتك بفندق بيدفورد ...اذا سمحت لى ؟

وزار الميجور بعد ذلك مستردمبى , ورد مستردمبى الزيارة للميجور . بعد أن نظر فى قوائم الجيش . وبعدئذ زار الميجور مستردمبى فى منزله بالمدينة , ثم نزل الى بريتون مرة أخرى فى نفس العربة كمستردمبى . وبالأختصار , توثقت عرى الصداقة بين الرجلين بسرعة غير عادية .

وكان مستردمبى قد أحضر معه مس توكس ومسز تشك الى بريتون لتريا طفليه , ولما وجد الميجور هناك مرة أخرى , دعاه لتناول الغذاء معهم بفندق بيدفورد , حيث أمتدح مس توكس كثيراً أمام جارها وصديقها الميجور . غير أنه على طول الطريق عائداً الى فندقه , كان الميجور لنفسه بأستمرار .

- هل سوف تفعلين , يا سيدتى , هل سوف تفعلين ؟ ... سوف تصبحين مسز دمى , يا سيدتى ... ايه ؟ كلا , لا اظن ذلك يا سيدتى . لن يكون ذلك طالما استطاع جو باجستوك أن يقف فى طريقك يا سيدتى .
- وفى اليوم التالى لذلك " وكان يوم الأحد " , كان مستر دمى ومسز تشك ومس تو كس جالسين الى طعاك الأفطار , حيث اتت فلورنس تجرى , وقد ولع وجهها وبرقت عيناها فى فرح , وهى تصيح :
- يا بابا ! يا بابا ها هو والتر , وهو لا يريد أن يدخل
- من ؟ ماذا تقصد الفتاة ؟ ما هذا ؟
- " والتر يا أبى " قالت فلورنس فى رقة وخجل " والتر الذى وجدنى عندما فُقدت
- " هل تقصد جاى الصغير يا لويزا ؟ " تساءل مستر دمى مكشراً " أن هذه الفتاة قد أضحت غريبة الأطوار ذات صخب .
- واسرعت مسز تشك الى الممر الخارجى , وعادت لتقول أنه جاى الصغير , مصحوباً بشخص غريب المنظر .
- " أخبروا الغلام أن يدخل " , وبعد ما دخل تابع مستر دمى كلامه " والآن , يا جاى , ما الأمر ! من أرسل الى هنا ؟ ألم يكن هناك شخص آخر ليحضر سوالك ؟
- " عفواً سيدى , لم يرسلنى أحد . لقد كنت من المرأة بحيث حضرت لغرض شخصى , أرجو أن تسمح لى بذكره .
- ولكن مستر دمى , كان ينظر حواليه فى قلق الى شى ما , دون أن يلقى بالآ الى ما قال :
- " ما هذا ؟ أعتقد أنك أخطأت فى الباب يا سيدى
- وتقدم القبطان خطوة الى الداخل , وقف منحنيماً لمستر دمى وملوحاً بخطافه فى ادب لسيدات , وتطلع مستر دمى لهذه الظاهرة فى دهشة وغضب ..
- وتكلم والتر وهو يرتعش وملقى نظره فى الأرض , وقال :
- أعتقد , يا سيدى لقد كانت تنقصنى الشجاعة لطلب مقابلتك , حتى بعد أن وصلت الى هنا , لولا رؤيتى لمس دمى و
- " حسناً " قال مستر دمى , وهو يتتبع عيني والتر المتجهتين بنظراتهما الى فلورنس التى كانت واقفة تصغى بأهتمام , ويكشر دون وعى منه لفلورنس التى كانت تشجع والتر بابتسامتها " حسناً .. استمر فى كلامك , لو سمحت "

- أن عمى المسكين في مأزق كبير , فبسبب خسارته في عمله , وعدم قدرته على الوفاء بدين ما , قد أوقع الحجز في بيته , واصبح مهدداً بفقد كل ما يمتلك . فلو تعظفت , لكرمك يا سيدى . ولمعرفتك بأنه رجل محترم , يعمل أى شئ لمساعدته في الخروج من هذا المأزق , فنحن لن نقو أبداً على أن نفيك حقتك من الشكر

وأمتلأت عينا والتر بالدموع وهو يتابع كلامه

" أنه مبلغ كبير جدى يا سيدى ...أكثر من ثلاثمائة جنيه . ولكن هناك بضاعة عمى , وهناك كاييت كتلى أيضاً الذى يرغب فى أن يكون ضامناً . وأنا لا أحب أن اذكر ايضاً مكسى من عملى , ولكن اذا أمكن اخذه نظير المال الذى تقرضه لعمى ... "وقف الغلام منخفض الرأس أمام موظفه.

وعندئذ تقدم كابتن كتلى نحو المائدة , وأفسح مكاناً بين أكواب الأفطار " قرب مرفق مستر دمى " لينثر عليه ساعته الفضية , ونقوده , وملاعق الشاى , وأداة التقاط قطع السكر " ماسكة السكر " .

- ونادى مستر دمى " يا بول تعال الى هنا ! .. "

وأطاع الطفل الأمر , واخذه مستر دمى على ركبته .

- لو كانت لديك نقود الآن بالقدر الذى يقوله جاى الصغير , ماذا كنت ستفعل ؟

- اقدمه لعمه

- تقرضه لعمه ...حسناً ! عندما تكبر فسوف تشاركنى أموالى , وسوف نستخدمها معاً .

- " دمى وولده " قالها بول الذى كان قد لقن هذه العبارة مبكراً فى حياته .

- " دمى وولده " , اردف الأب " هل ترغب فى أن تكون " دمى وولده " من الآ , وتقرض هذا المال

لعم جاى الصغير ؟

- أوه لو سمحت يا بابا , وهكذا سترغب فلورنس

- البنات لا شأن لهن بدمى وولده ...هل ترغب أنت فى ذلك ؟

- أجل يا بابا . أجل !

- أذن فسوف نفعله

وعندئذ توجه مستر دمى الى منضدة ما وكتب خطاباً قصيراً وأغلقه .

- أعط هذا لمستر كاركر سوف يقوم هو بدفع المبلغ . واعتبر هذا العمل مقدماً لك من السيد بول . لا

ارغب من المزيد من الكلام من فضلكم

وإذا أسار نحو الباب , لم يستطع والتر الا أن يحنى راسه ويغادر المكان . ولدى رؤية اشياء القبطان على المنضدة , قال مستر دمي " تكرم باخذ هذه الأشياء بعيداً من فضلك يا سيدى "

ولم يكن أمام القبطان الا أن يطيع . ثم قبل الكابتن كتلى " خطافه " تحية للسيدات عدة مرات , واصطحب والتر خارج الغرفة . وأخذت فلورنس تجرى خلفهما لتبعث برسالة الى سول العجوز , الا ان مستر دمي طلب منها العودة وأمرها بالبقاء فى مكانها .

- ألم تصبحى أبداً مث أل دمي , يا طفلى العزيزة .. قالت مسز تشك

- يا عمى العزيزة , لا تغضبى منى . أننى شاكرة جداً لبابا !

الفصل الثامن " مدرسة الدكتور بلمير "

رعت مسز ببيكين بول الصغير وأخته حوالي اثنتي عشر شهراً , وشيئاً فشيئاً , أخذ بول يقوى ويشتد , ولكنه كان لا يزال يبدو نحيفاً رقيقاً , كما أنه بقي نفس الطفل القديم , الهادئ , الحالم كما كان , عندئذ وضع تحت رعاية مسز ببيكين , بأدئ الأمر . وفي ذات عصر من ايام السبت , حضر مستر دمبي لدار مسز ببيكين دون توقع .

- " مسز ببيكين " قال مستر دمبي " أن ابني الآن في السادسة من عمره , ولا شك في انه , كما أخشى متخلف في دراسته عن الكثيرين من أقرائه في مثل سنه . ولقد كان يجب أن يكون ابني متفوقاً جداً على أقرانه بدلا من أن يكون متخلفاً عنهم . أن هناك مركزاً كبيراً ينتظره . وان تعليم مثل هذا السيد الصغير لا يجب أن يؤجل أو يترك ناقصاً . ولقد كنت أفكر في ارساله لمدرسة الدكتور بلمير " ..

- أعتقد أن مدرسة الدكتور بلمير ممتازة " قالت مسز ببيكين " لقد سمعت أنها تدار بحزم ودقة شديدين , ولا يوجد شئ يجري فيها سوى التعليم من الصباح الى المساء . وعاد مستر دمبي الى فندقه وقد صمم بشدة على ان بول يجب أن يبدى في الحال منهجاً دراسياً وأن الدكتور بلمير يجب أن يأخذه في رعايته . ومؤسسة الدكتور كانت متزلاً بدعياً في مواجهة البحر . غير انها لم تكن بيتاً بهيجاً من الداخل . فأن الستائر ذات الألوان الحزينة القائمة كانت تستقر خلف النوافذ . والمناضد والمقاعد كانت موضوعة في صفوف وحجرة الطعام كانت تبدو كأخر مكان في العالم يمكن أن يجري فيه طعام أو شراب . ولم يكن هناك صوت ما في جميع ارجاء المتزل عدا دقائق ساعة كبيرة في الصالة , وفي بعض الأحيان كانت تسمع هناك أصوات الصغار وهم يرددون دروسهم .

وعلى عتبات باب الدكتور وقف بول ذات يوم بقلب مرتجف ويده اليمنى الصغيرة في يد والده . أما يده الاخرى فكانت يد فلورنس تحتويها بشدة .

- " والآن يا بول " قال مستر دمبي في زهو و انتصار " هذا هو السبيل لتكون حقيقة دمبي وولده , وتستحوذ على نقود كثيرة . أنت الآن رجل تقريباً " .

- " تقريباً " قال الطفل .

وكان الدكتور جالساً في غرفة مكتبه , وقد استقرت على كرة أرضية على كل من ركبتيه , وانتشرت الكتب الكثيرة من حوله . "؟ وكيف حالك , يا سيدى " قال لمستر دمبي " وكيف حال صديقى الصغير

- ؟ " ولما توقف عن الكلام , بدت الساعة الكبيرة فى القاعة وكأنها تردد قائلة " كيف حال صديقى الصغير ؟ كيف حال صديقى الصغير ؟ " .
- " حسناً جداً , أشكرك يا سيدى " قال بول مجيبى الدكتور وكأنه يجيب الساعة فى ذات الوقت .
- " ها ! قال الدكتور بلمير " هل سوف نجعل منه رجلاً ؟ "
- " أننى أفضل أن اكون طفلاً " أحاب بول .
- " حقاً ! قال الدكتور .. " لماذا ؟ "
- وجلس الطفل على المنضدة يتطلع اليه . بتعبير غريب على وجهه . وكان يضرب بيده فى كبرياء على ركبته كما لو كان يمنع الدموع المتصاعدة الى ما فيه . ولكن بيده الأخرى كانت تتحرك بعيداً حتى استقرت على عنق فلورنس , وكأنه أراد بذلك أن يقول " هذا هو السبب " , ثم لم تلبث الدموع أن أتت منهجرة .
- بول , يا طفلى , وداعاً " قال مستر ديمى .
- وداعاً , يا بابا "
- " انت سوف تحاول أن تتعلم أشياء كثيرة هنا , وتكون رجلاً مجتهداً , قال ديمى " أليس كذلك ؟ "
- سوف أحاول
- وسوف تنمو الآن سريعى
- " أوه سريعاً جداً " أجاب الطفل . ومرة اخرى طافت النظرة القديمة بوجهه فى سرعة كضوء غريب . وجرى فلورنس عائدة لتلقى يذراعيها حول عنقه . وكان وجهها آخر شئ لاح له فى مدخل الباب وهى تتلفت نحوه بابتسامة تشجيع خلال دموعها . ثم سمع بول بعدئذ دقات الساعة العالية فى القاعة وهى تتساءل فى جد ورازنة " كيف حال صديقى الصغير ؟ كيف حال صديقى الصغير ؟ "
- وجلس الطفل بيدين مطويتين , يتسمع فى صمت وسكون . ولكنه لو أراد الأجابة لقال " أننى متعب ...متعب ! منفرد , وحزين جداً " .
- وفى الصباح التالى , نزل بول الى الحجرة التى يودى فيها الصغار واجباتهم الدراسية . وما أن مر الى جوار باب نصف مفتوح , حتى سمع صوتاً من الداخل يصيح قائلاً " هل هذا هو ديمى ؟ وعندما أجاب بول قائلاً " نعم يا سيدتى " قالت مس بلمير " ادخل يا ديمى " فدخل الصبى .
- وجذب ألفتات بول الى كوم صغير من الكتب الجديدة
- هذه هى كتبك يا ديمى
- كلها يا سيدتى

- " نعم " , ومستر فيدر سوف يحضر لك بعضاً في القريب العاجل , اذا كنت مجتهداً في العمل كما أتوقع أنك ستكون , يا دمى

- اشكرك يا سيدتى

- سوف أخرج الآن لسير بعض الوقت

وبينما أنا في الخارج , أى من الآن حتى وقت الإفطار , ارجو أن تقرا ما وضعت عليه من علامات في هذه الكتب . لا تضيع وقتك يا دمى وابدأ في الحال .

ولما انتهى الإفطار , تبع بول بلمير الى أعلى .

- والان يا دمى , كيف سرت في هذه الكتب ؟

وكان بول قد أختلط عليه كل شئ .

- اوه , دمى , دمى ! هذا سئ جداً والآن خذ الكتاب الذى في اعلى الصف بعيداً عندما تكون حفظت الدرس الأول .

وفعل بول كما امر واخذ يذاكر في اجتهاد . وكان في بعض الأوقات ينسى كل شئ وأخيراً صعد الى الطابق العلوى مرة أخرى ليكرر دروسه .

واشتغل بول جيداً , وأنت مس بليز عليه وقدمت له في الحال الدرس الثانى , قم الثالث , ثم الرابع قبل الغداء , ثم استائف العمل يشدة في دراسته بعد الغدار مباشرة , فتشعر بالدوار والنعاس وعدم القدرة على الفهم والاستيعاب . ولكن كل الغلمان الآخرين كانوا يشعرون بنفس الشئ وكانوا يضطرون الى الأستمرار في الدراسة أيضا وبعد الشاى , كان هناك عمل اخر وأستعداد لليوم التالى وأخيراً كان هناك نوم .

وفي يوم السبت : يا ليوم السبت السعيد كانت فلورنس دائماً تأتي عند الظهه وكان يذهبان معاً الى شاطئ البحر أو يجلسان ويسيران معاً , أو يمكثان في حجرة مس بلمير الخلفية الكتيبة , وفلورنس تغنى له في رقة ونعومة ورأسه النائم مستقرا على ذراعها , غير أن بول كان يبدو سعيداً جدى في كل هذه الأحوال . كانت فلورنس هى كل ما كان يفكر فيه .

وكانت مس نيبير عائدة ذات ليلة من لىالى الأحد مع فلورنس , بعد أن يارا عاتدين ببول الى مدرسة الدكتور بلمير عندما قدمت له فلورنس قطعة صغيرة من الورق , كانت قد كتبت عليها بعض الكلمات .

- " أنظرى يا سوزان هذه اسماء الكتب الصغيرة التى يحضرها بول للمتلل ليحلل التمارين الطويلة . اريدك أن تشتريها لى , اذا سمحت لى , باكر صباحاً " .

- ولماذا تريدون هذه الكتب ؟

- أعتقد انى استطيع ان اقدم لبول بعض المساعدة , واجعل العمل القادم اسهل قليلا بالنسبة له .
وكانت فلورنس تجلس الى هذه الكتب ليلا لتتابع دروس بول بعد أن تكون فد اهدت دروسها اليومية ,
وهكذا تعلمت حالا قدر بول بل واكثر .

وكان اجرها عظيماً حين جلست ذات امسية من امسيات السبت الى جانب بول , وأرته كل صعب
عسير , وقد بات واضحاً سهلاً . ودائماً بعد ذلك , كانت فلورنس تجلس مع بول ليلة الأحد وتساعده
فى صبر فى أداء عمل الأسبوع التالى .

ولما قال الدكتور بول أن بول قد تقدم تقدماً كبيراً , واصبح مجتهداً مُجدداً , صمم مستر دمبى أكثر من
ذى قبل على أن يضطر ولده الى تعلم شيئاً اكثر .

وحالا فقد بول كل حيوته , ولكنه أحتفظ بكل ما كان له فى الماضى من شروود وأطوار غريبة . وذات
مساء ذهب مستر توتس , اكبر ولد فى المدرسة لرؤية بول :

- " فيما تفكر " , صاح توتس وهو يدخل حجرة بول .

- أوه ! أنى أفكر فى أشياء كثيرة .

- حقيقة ؟ سأل توتس .

- " اذا كان عليك أن تموت " قال بول , وهو يتطلع الى وجهه وحملق مستر توتس فى اضطراب .

- الا تظن أنه من الأفضل أن تموت فى ليلة مقمرة عندما تكون السماء صافية تماماً , والرياح تمب كما
تفعل فى الليلة الماضية .

وقال مستر توتس , وهو ينظر فى شك الى بول , أنه لا يعرف شيئى عن هذا الأمر

- " ربما لم تكن تمب " قال بول " ولكنها كانت على الأقل تحدث أصواتا فى الفضاء كاصوات البحر فى

الأصداف . لقد كانت ليلة بديعة . وبعد ما أنصت المياه وقتاً طويلا , نهضت وتطلعت . كان هناك

تقارب بعيد , فى ضوء القمر المتكامل , قارب ذو شراع . والشراع كانت تشبه ذراعاً من فضة . وراح

القارب بعيداً بعيدى وبدا انه ينادى - ينادينى لأغدو اليه : هاك هى ! هاك هى "

وارتعب توتس لتلك الصيحة المفاجئة , وصاح من ؟

- أختى فلورنس ! , تتطلع الى هنا وتلوح بيدها أنها ترانى ! ليلة سعيدة يا عزيزتى , ليلة سعيدة , ليلة

سعيدة .

وإذا باتت الأمسيات أكثر طولاً حينئذ كان بول يزحف الى نافذته كل مساء ليتطع باحثاً عن فلورنس

وكانت دائماً تمر فى وقت معين وكانت رؤيتها شعاعاً بهيجاً من ضوء الشمس فى حياة بول اليومية ,

وبعد هبوط الظلام كان كثيراً ما يسير شيخ آخر بمفرده أمام منزل الدكتور وكان هذا الرجل حينئذ لا يشاركهما كثيراً في يوم السبت , كان يفضل أن يأتي في هدوء , دون أن يلحظه أحد , ويتطلع الى النوافذ حيث كان ابنه يستعد ليغدو رجلاً , وينتظر , ويراقب , ويرسم الخطط ويؤمل .

الفصل التاسع " أعمال المكتب "

كانت مكاتب مستر دومبي في ساحة يوجد بأحد اركانها وكان قديماً لبيع أفضل أنواع الفاكهة , يعرض فيها البائعون ما بين الساعة العاشرة صباحاً والخامسة مساءً النعال والمحافظ وأطواق الكلاب والصابون وما الى ذلك

ولما ظهر مستر دمبي , تراجع هؤلاء البائعون الى الخلف بأحترام وجرى البواب ليفتح الباب ويفسح الطريق

ولما رأى مستر بيرش الساعى , مستر دمبي يدخل , أسرى الى حجرة مستر دمبي ليشعل النيران بوضع فحم جديد في المدفأة , ويضع كرسيه في مكانه ثم أستدار لحظة دخول مستر دمبي الى الحجرة ليأخذ معطفه وقبعته ويعلقهما

وأقرب حجرة لمستر دمبي كانت تلك التى يشغلها كاركر مدير اعماله وكان مستر كاركر في نحو الثمانية والثلاثين أو الأربعين من عمره , ذا وجه أحمر اللون , وصفين كاملين من الأسنان اللامعة البراقة التى لا يمكن تجنب النظر أليها , لانه كان يظهرها كلما تكلم , وكانت ابتسامة عريضة تلوح على وجهه , بما شئ مما يبدو على القطة حين تموه غاضبة

- " كيف حالك اليوم ؟ " قال مستر كاركر , وهو يدخل حجرة مستر دمبي ذات يوم , ويده عدد من الأوراق

- " كيف حالك يا كاركر ؟ " قال مستر دمبي " هل لديك شئ لى ؟ "

- " أرسل مورفن افادة بوفاة شاب فى توكلينا ببلدة باربادوس , وهو يقترح أن نحجز مكاناً على الباخرة " صن آند أير " للشخص الذى سوف يحل مكانه أنت لا يهملك من يذهب , على ما أعتقد ؟ فهز مستر دمبي رأسه فى غير أكتراث :

- " أنه ليس عملاً طيباً " ثم تابع " من هذا ؟ أدخل "

- " هذه خطابات لمستر دمبي , يا سيدى " قال والتر , وقد ظهر ببعض الخطابات فى يده

- " حسناً جداً " قال مستر كاركر , وهو يأخذها منه فى حده " أذهب انت الى عملك "

ولكن عند تناول الخطابات , أسقط كاركر واحداً منها على الأرض , وتردد والتر برهة , فى انتظار ان يلاحظ أحدهما ذلك , ولكن عندما لم يحدث ما كان ينتظره , التقط الخطاب ووضع بنفسه على مكتب مستر دمبي وكان هذا الخطاب هو تقرير مس بلمير الدورى المنتظم الذى يُرسل عادة بواسطة فلورنس

- وما أن جُذِبَ ألتفات مستر دمبى الى هذا الخطاب بواسطة والتر , حتى استدار ونظر فى صرامة أليه , كما لو كان قد أعتقد انه قد تخيره عمداً دون باقى الخطابات
- " يمكنك أن تغادر الحجره يا سيدى " قالها مستر دمبى فى عظيمه وتعالم
- وثنى الخطاب بين أنامله كما لو كان يريد أن يُلقى به فى سلة المهملات غير أنه لم يلبث أن وضعه فى جيبه , حين رأى والتر خارج الباب
- " انت تريد شخصى ترسله الى جزر الهند الغربيه ؟ " . ثم تابع مستر دمبى , " ارسل جو الصغير " نادى عليه
- وعاد والتر بسرعه
- سوف ارسلك لتأخذ مكان أحد شباننا فى دار الأحصاء بباربادوس فى جزر الهند الغربيه .
- وهل سألنى هناك يا سيدى ؟
- ماذا يقصد يا كاركر ؟ سأل مستر دمبى .
- أقصد : هل سوف أعيش هناك ؟ قالها والتر متردداً .
- اجابه دمبى : بالتأكد
- وانحنى والتر له
- " ليس هناك ما يدعو لبقائه , يا كاركر , قال مستر دمبى " الا اذا كان لديه ما يريد أن يقول .
- " كلا يا سيدى " أجاب والت وهو يرتعش ولا يقوى على التفكير " أكاد لا أدرى .. أننى .. اننى شاكر جداً , يا سيدى .
- " لا ضرورة لبقائه , يا كاركر " قال مستر دمبى
- وسار والتر الى الخارج وقد أمتلاً دهشة وعجباً .
- ولم يكن بمسطيع ان يصدق انه على وشك أن يرسل الى جزر الهند الغربيه , وانه على وشك أن يجرم من العم سول , ومن الكايب كتنلى ومن رؤيه فلورنس دمبى - كلا أنه يقصد بول - ومن كل من كان يجب , ومن كان يتطلع أليهم فى حياته اليوميه .

الفصل العاشر " بول يعود الى منزله "

واقتربت أجازة منتصف الصيف

وذات مساء , وقد دخل بول الى حجرة مستر فيدر , رأى مُدرسة تملأ المواضيع الخالية في بعض الخطابات المطبوعة , بينما كانت تطوى الخطابات الاخرى التي فرغ منها وتغلق بواسطة مستر توتس وقال مستر فيدر " آها , دمبي , أنه انت , أليس كذلك ؟ " ثم اردت قائلا وهو يرى أحد الخطابات نحوه " ها هو انت أيضا يا دمبي , هذه الخطابات لك "

وكان ذلك الخطابات دعوة الى الحفلة يعقدها الدكتور بلمبر للمدرسة كلها وعندئذ أخبره مستر فيدر لفرحه العظيم , ان اخته مدعوة وأنه يستطيع ان يعود معها بعد الحفلة , نظرى لبدء الأجازة ذلك اليوم وفي تلك الليلة شعر بول بالتعب , حتى انه اضطر الى ان يسند راسه التي كان كثيراً ما يشعر فيها بألم وثقل الى يده وشيئاً فشيئاً سقطت تلك الرأس على ركة مستر توتس واستقرت هناك كما لو كان لا يهتمها أن يرفع أبدأ مرة ثانية

وسمع مستر فيدر ينادى في اذنه , ويهزه في رفق ليثير انتباهه ولما رفع رأسه , وجد ان الطبيب قد دخل الى الحجرة , وان النافذة مفتوحة وان جبهته مبللة بقطرات من الماء . وبدا له ان شيئاً ما قد حدث في ارض الغرفة تدور من حوله . ولما اخذ مستر توتس بول في ذراعيه ليحمله الى الدور العلوى , لاحظ بول في دهشة أن الباب قد أضحى في مكان مختلف تماماً من ذى قبل .

وبينما كان راقدآ بعينين مغلقتين سمع بول الطبيب يقول انه محتاج الى تجديد القوى , وأنه في حالة ضعف بدني شديد . ثم عاد الطبيب مع الدكتور ومسز بلمبر ليقول :

" أجل اعتقد يا دكتور بلمبر أنه يحسن أن نعتق هذا السيد الصغير من كتبه الآن حالا " .

" بالتأكيد " قال الدكتور بلمبر .

واخيراً حان يوم الحفل . ولما ارتدى بول ثيابه , نزل الى حجرة الاستقبال . ووصل في اثره مباشرة مستر توتس ومستر فيدر , وكل منها يحمل قبعة في يده , كما لو كان يعيشان في مكان اخر .

ولم تلبث فلورنس ان وصلت وقد بدأت رائحة الجمال في رداء السهرة البسيط , وهى ممسكة في يدها ببعض الزهور الليانة . وركعت على الأرض لتطوق عنق بول بذراعيها وتقبله .

- " ولكن ما الأمر يا فلوى " سأل بول , وقد تأكد أنه رأى دمعة تطفر منها .

- لا شئ يا عزيزى , لا شئ .

ولم يستطع بول ان يفهم لماذا حولت فلورنس وجهها بعيداً للحظة وجيزة , ثم أعادته وقد أضاء مرة أخرى الأبتسامات .

كانوا جميعاً ظرفاء معه , حتى الغرباء , وكانوا يأتون ويتحدثون اليه بين آونة وأخرى , وسألوه عن صحته , وعما اذا كانت راسه تؤلمه , وعما اذا كان متعباً . وكانت فلورنس تريد ان تجلس الى جواره طول الليل ولا ترقص على الأطلاق , ولكن بول جعلها ترقص حين اخبرها بان ذلك يسره كثيراً . وقد كان هذا حقيقياً , لان قلبه الصغير كان يمتلى بالفرح ووجهه يلمع بالحبور عندما كان يرى الناس جميعى معجبين باخته الحبيبة .

وحان الوقت للرحيل , وودع السادة الصغار بول فى صخب وضجيج , وهم يلوحون خلفه بقبعاتهم ويتدافعون على الدرج لمصافحته وكل منهم يصيح " دمبى لا تنسى ! " .
ولما ذهب بول لمزله حمل على الدرج الذى كان يذكره جيداً وكان يذكر أيضاً سريره القديم , عندما وضعوه فيه . ولكن كذلك هناك أمر يقلقه !
" اريد أن أتحدث مع فلورنس . دقيقة واحدة , لو سمحتم ..
وانحنت الفتاة فوقه , ووقف الآخرون بعيداً .

- " فلوى يا حبيبى , ألم هو بابا الذى فى القاعة عندما أتوا بي من العربة ؟
- نعم يا عزيزى

- أنه لم يبك ويذهب الى حجرته , يا فلوى هل فعل ذلك عندما رأني ادخل ؟
فهزت فلورنس رأسها , وضغطت بشفتيها على خده .

- أنى مسرور جدى انه لم يبك , كنت اظن انه فعل ذلك ... لا تخبريهم بأني سألتك فى هذا الأمر "

الفصل الحادى عشر " ما كانت تقوله الأمواج دائماً "

ولم ينهض بول أبدي من فراشه الصغير . لقد ظل راقداً هناك فى هدوء ينصت الى الأصوات التى فى الشارع , وهو لا يهتم كثيراً بمرور الوقت .

وكانت أفكاره تتجه بطريقة غريبة الى النهر , الذى كان يعرف أنه يجرى وسط المدينة العظيمة , وكان يسرح الفكر فى لون ذلك النهر وفى عمقه , وفى جريانه الثابت المستمر نحو البحر .

- " لماذا لا يتوقف ابدأ عن الجريان , يا فلوى ؟ . انه يحملنى معه بعيداً " .

وتغير كل الناس حوله عدداً فلورنس . أن فلورنس لا تتغير أبداً . ولكن شبحاً يحمل رأسه على يديه كان يعود كثيراً , ويبقى طويلاً ويجلس ساكناً الى جواره , لا يتحدث الى احد , ولا يرفع وجهه الا نادراً , حتى ان بول بدأ يتعجب هل هى حقيقة هذا أم خيال , وفى خلال الليل كان جالساً هناك فى خوف .

- يا فلوى , ما هذا ؟

- أين يا حبيبى ؟

- هناك فى أسفل الفراش ؟

- لا احد هناك سوى بابا !

ورفع الشبح رأسه , ونهش واتى الى جانب الفراش وهو يقول " يا ولدى , الا تعرفنى ؟ " .

وتفرس بول فى وجهه , ولكن الوجه الذى ظن انه قد تغير تحرك كما لو كان فى ألم شديد . وقبل أن يتمكن الولد الصغير من مد يديه لجذبه اليه , تحول الشبح بعيد فى سرعة خاطفة عن السرير الصغير وخرج من الباب .

وفى المرة التالية التى رأى الشبح فيها جالساً عند أسفل الفراش , ناداه قائلاً

- " لا تخزن من أجلى يا عزيزى بابا !! الواقع أننى سعيد جداً " .

ولم يحاول بول أن يعرف كم من الليالى ظل النهر القاتم الأسود ينحدر نحو البحر على الرغم منه .

- " يا له من مُسرّع فى جريانه يا فلوى , وهو يشق طريقه بين ضفتيه الخضراواتين ! ولكنه قريب جداً من البحر . أننى اسمع الأمواج " .

قم أخبرها حالاً بعد ذلك ان حركة القارب فوق النهر تهدده وتجلب اليه الراحة والنعاس . يا لها من ضفاف قد اصبحت الآن رائعة الأخضرار ! يا لأزهار اليانعة المزدهرة التى تنمو فوقها ! ها القارب الآن

قد خرج الى البحر , ولكنه يبحر فى سهولى ورفق , وها هو شاطئ بديع جذاب قد لاح أمامه . من ذلك الواقف على الشاطئ ؟ .

- ماما تشبهك يا فلوى , أننى اعرفها بوجهها " .
وأشرق الضوء الذهبى على الحائط , ولم يتحرك شئ آخر فى الحجرة .
ومات الصغير بول .

الفصل الثانى عشر "الأب والبنت "

هناك سكون تام فى منزل مستر دمبى والطفل يرقد هادئاً جميل المنظر على فراشه الصغير وخلال ذلك الوقت ، لم ير أحد الأب الحزون ، لأنه كان يجلس فى الركن الداخلى فى غرفته الخاصة المظلمة ، بينما كان بعض الناس فى الخارج ، وكان لا يظهر الا عند ما يسير لقضاء ضرورة ما بيد أن الخدم تھامسوا فى الصباح بأنهم قد سمعوا السيد يصعد الى الدور العلوى فى منتصف الليل، وأنه قد بقى هناك - فى الحجره - حتى أشرقت الشمس والآن ، أخذ مستر دمبى يمر وسط جماعة من الخدم الذين يرتدون ثياب الحداد والنسوة الباقيات ، ويخترق القاعة فى طريقه الى عربته التى تنتظره فى الخارج وكان اولئك الناس يظنون ان الحزن الهائل الذى نزل به لم يستطع ان يقهره ، غير أن وجهه بدأ شاحباً قد أمتص منه ماء الحياة وتحرك الجناز الكبير ببطئ فى الشارع حتى اقترب من أبواب الكنيسة التى كانت تدق اجراسها لقد كانت نفس الكنيسة التى تعمد فيها الطفل ، واخذ اسمه ، وهو كل ما تبقى له بعد ذلك على الارض ولما أنتهت المراسيم الدينية ، وغادر الكاهن المكان سأل مستر دمبى عن الرجل المكلف بالحضور وتلقى التعليمات بخصوص النصب " وهو الحجر الصغير الذى تُنقش عليه بعض الكلمات ويُترك عادة الكنيسة للذكرى " .

وتقدم أحد الرجال قائلاً " نعم يا سيدى " .
- أظن انه لن يكتب شئ عدا الأسم والسن .
- أرجوك لو سمحت ان تقرأ ما كتب مرة أخرى ، فأنى أظن أن هناك خطأ ما . قال الرجل وهو يشير الى العبارة المكتوبة " الطفل الوحيد المحبوب " .
وأردف الرجل قائلاً :

- أعتقد يا سيدى أن هذه العبارة يجب أن تكون " الأبن الوحيد المحبوب " .
- انت على حق ، سوف أصحح الخطأ .
وبعود الاب فى خطوات مسرعة الى العربة ، ووجهه مخبأ ، للمرة الأولى ، فى رادئه الأسود . ولم ير أحد محياه مرة أخرى فى ذلك اليوم ، ولم يعرف أحد ماذا كانت مشاعره ، وأفكاره ، وآلامه !
- " ياعمى العزيزة " ، قالت فلورنس فى الصباح التالى لمسز تشك " احيرينى شيئاً اكثر عن أبى . هل هو كسير القلب جداً ؟ هل هناك ما أستطيع أن أفعله لكى"

- " يا طفلي العزيزة " , قالت مسر تشك بسرعة " عما تتحدثين ؟ لا يجب أن تظهرى نفسك له .. لا تحلمى بشئ من هذا القبيل " .

وبأدئ الأمر لم تستطع فلورنس أن تفعل شيئاً سوى أن تبكى وتتجول فى أعلى المزل وفى أسفله . وكانت , حين تتذكر ما أصابها فجأة , تسرع الى حجرتها , وتدفن وجهها فى فراشها . لم تعرف عزاء أو سلوى , ولم تكن تحس الا بمرارة الاسى وقسوته .

وعند ما كان ينام أهل المزل جميعاً , وتطفئ كل الأنوار , كانت تترك غرفتها فى خفة , وتتسل دون أحداث أى صوت الى أسفل الى باب حجرة والدها , حيث كانت تسند وجهها ورأسها وتلامسه شفيتها , وقد حبست أنفاسها . كانت أمنيتها الوحيدة أن يسمح لها بأن تظهر له بعض الحب , لكى تعزیه فى ما أصابه . ولتحقيق هذه الأمنية كانت مستعدة لان تركع عند قدميه وتتوسل إليه , لو أستطاعت وتجرات .

ولكن لم يكن أحد يعرف لك , كان الباب مغلقاً دائماً . وكان الأب يعيش وحيداً مترعلاً . لا راها أبدأ ولا يسأل عنها . وربما لم يكن يعرف أنها فى المزل .

وفلورنس لم تكن قد تعدت طور الطفولة الا بقليل . كانت تبلغ الرابعة عشر , وكان من المحتمل أن تؤثر الوحشة والأنفراد فى ذلك المزل الضخم فى نفسها وأعصابها , وتؤدى بها الى تصور مخاوف غامضة وخيالات مخيفة . غير أن قلبها كان مليئاً بأفكار الحب ومشاعره حتى أنه لم يسمح لمشاعر الرعب والخوف بالدخول اليه .

ومن وفاة أخيها , لم تكن الفتاة تستطيع أن تذهب ليلا الى فراشها , دون زيارة باب غرفة والدها . وفى هذه الليلة , ما أن لامست الباب حتى وجدته مفتوحاً . وشجعها أن رأته شعاعاً من ضوء من الداخل . ولم تلبث أن دلفت الى الغرفة فى خفة وسكون , ويدها ترتعشان , مدفوعة بالحب العظيم الذى فى داخل نفسها .

وكان والدها جالساً فى تفكير عميق , وعيناه مثبتتان الى المائدة . وتحول بوجهه نحوها . قرأت ذلك الوجه كئيباً , مجهداً , تعساً .

- " بابا ! بابا ! تكلم معى يا عزيزى " .

وفرع لسماع صوتها وقفز من على مقعده .

- ما الأمر ؟ . قالها فى قسوة وتابع " لماذا أتيت الى هنا ؟ ما الذى افرعك ؟

والواقع انه لم يفرعها شئ سوى ذلك الوجه الذى تحول نحوها . أن الحب الدافع الذى كان فى قلب الأبنة الصغيرة , تجمد أمام ذلك الوجه , ووقفت الفتاة ونظرت إليه , وكأنها قد تحولت الى قطعة من حجر .

لم تكن هناك أية لمسات الحب أو الشفقة فى ذلك الوجه الصارم الجامد . كان يخلو تماماً من ملامح الأهتمام وأطياف الرقة والأنعطاف الأبوى .

هل كان دمبى قد رأى أمامه حينئذ من تخيل أنها المنافس الناجح لابنه فقد , والغريم الذى تتميز عليه بالصحة , والقوة , والنجاح ؟ أم أنه كان ينظر الى الفتاة على أنها المنافس الناجح له شخصياً فى اجتلابعاطفة ابنه ومحبهه ؟ أكان من الممكن أنه قد وجد من المؤلم أن ينظر الى جمالها الرائع ويتذكر ابنه الميت . ؟

وما اسرع ما يعرف الشخص المحب انه غير مرغوب فيه . وهكذا مات الأمل فى قلب فلورنس بعد أن وقفت وتفرست فى وجه ابيها .

- أنى أسالك يا فلورنس : هل انت مرتعبة ؟ هل هناك شئ ما جعلك تحضرين الى هنا ؟

- لقد اتيت يا أبى ؟

- " على الرغم من ارادتي " .. لماذا ؟

وأدركت أنه يعرف لماذا أتت . لقد كان واضحاً على وجهه . اسقطت رأسها بين يديها , وهى تتشنج فى بكاء طزيل خافت .

دعه يتذكر هذا الموقف فى تلك الحجرة فى السنوات القادمة . ان هذا المنظر قد يختفى من ذاكرته بسرعة , كما يعتقد هو , ولكنه سيظل راسخاً هناك فى أعماق أعماق نفسه . أنه سوف يذكر هذا الموقف فى تلك الحجرة , فى السنوات التالية .

وأخذها من ذراعها وكانت يده باردة مفككة .

- " انت متعبة , على ما أرى " قال وهو يرفع الشمعدان ويقودها نحو الباب , " وتحتاجين الى الراحة -

هيا , يا فلورنس لقد كنت تحملين سوف أقف هناك لأضى , لك طريقك على السلم . ليلة سعيدة ... "

وبينما كانت لا تزال مغطية وجهها , أجابت وهى تبكى : ليلة سعيدة يا عزيزى بابا , ثم صعدت السلم

فى صمت . وبدت بعد برهة وجيزة كما لو كانت تريد العودة اليه لولا خوفها وخشيتها . بيد أنه كان

خاطراً عابراً , لم يحفزها على تنفيذه أى مشجع . وظل أبوها واقفاً هناك بلا حراك , والشمعدان فى يده

, حتى اختفى رداء طفلته الجميلة فى الظلام .

دعه يتذكر كل هذا , فى تلك الحجرة , فى السنوات التالية من عمره .
وآخر مرة راقبها فيها من نفس المكان : وهى تصعد ذلك الدرج كانت تحتوى أباها فى ذراعيها . وهذا
لم يحرك قلبه محوها الان , بل زاد من صلابته . ودخل مستر دمبى الى حجرتة , وأغلق بابه , وجلس فى
كرسيه , وأخذ ينتحب على ولده الفقيد .

الفصل الثالث عشر " والتر يرحل بعيداً "

بدأ والتر كئيباً محزوناً وهو يتلفت حواليه فى حجرة نموه العتيقة ويتخيل أنه بعد ليلة أخرى واحدة , قد لا يراها على الإطلاق .

ولكن والتر كان فى نفس الوقت يفكر فى عمه العجوز . وهكذا ما أن عاد الى غرفته بعد أنتهاء عمل يومه الأخير فى لندن , حتى نزل منها ثانية ليجلس الى عمه العزيز :

- " ياعمى " , قال فى مرح , وهو يضع يده على كتف الرجل العجوز " ماذا تريد أن ارسل لك من باربادوس ؟ " .

- الأمل يا عزيزى واللى . الأمل فى أن نلقى ثانية على هذا الجانب من القبر , أرسل لى من هذا الأمل قدر ما تستطيع .

- على أنك لن تنسى ما سوف ترسله لى ياعمى , أليس كذلك ؟ .

- " كلا يا والتر , كلا " . أجاب الرجل العجوز , سوف ابعث إليك بكل شئ أسمعته عن مس دمبى , ولا سيما الآن بعد أن غدت وحيدة منفردة , يا لها من مسكينة ! على أنى أخشى الا يكون هذا الذى ابعث به عنها شيئاً كثيراً يا واللى .

- لو رأيتها يا عمى , قال والتر " أخبرها أنى قلت أنى لن أنسى وجهها الجميل , ولا طبيعتها الحلوة الرقيقة .

فى هذه اللحظة , أتت فلورنس وسوزان الى الدكان . ولم يرها والتر فى الحال اذ كان ظهره الى الباب . ولكنه رأى عمه يقفز من مقعده .

- " ماذا يا عمى ! . صاح والتر " ما ذا فى الامر ؟

فأجاب سول العجوز " مس دمبى ! " . وقبلت العم سول على خده , قم أعطت يدها لوالت .

- اسوف ترحل بعيداً , يا والتر ؟ قالت فلورنس .

- أجل يا مس دمبى , أمامى رحلة طويلة كما تعرفين .

- أن عمك حزين لفراقك بالتأكيد . وأنا أيضاً حزينة يا والتر .

والثفت فلورنس الى العم سول , الذى كان تتملكه الدهشة كما يتملكه الأعجاب . " اهكذا تموت

سريعاً ؟ " قال سول العجوز . لقد أزداد جمالك كثيراً ! ولكنك لم تتغيرى . نعم ان ذلك التعبير الجميل

كان أيضاً على وجهك الصغير فى سالف الزمان " .

- " هل تذكرني " قالت فلورنس فى ابتسامه حلوه " حسن كنت مخلوقه صغيره ؟ .
- يا سيدتى الصغيره , العزيزه . كيف يمكن أن انسالك ؟ وفى هذه اللحظه التى دخلت فيها الى هنا ,
كانو واللى يتحدث معى بخصوصك , وويترك لك رسائل و و
- حقاً . اشكرك يا والتر !
وبينما كانت تغادر المكان , سألت والتر قائلة " هل تظن أنك سوف تغيب لفترة طويلة جداً ؟
- لا أعرف . أخشى ان يكون كذلك , قال والتر . لقد قال مستر دمى ذلك حين أمر بتعيينى هناك .
- هل هى خدمة لمصلحتك يا والتر ؟ سألتها فلورنس , وهى تتطلع فى لهفة الى وجهه
واجابت تعبيرات وجهه قبل أن تنطق شفتاه . كان الجواب هو " كلا " .
- " أخشى أن تكون غير مقرب الى أبى " قالت فى رقة , " ولكنه سوف يشفى من حزنه العميق , وربما
يتحدث معى فى حرية وانطلاق ذات يوم . وعندئذ سوف اطلب اليه أن يعيدك الى هنا لاجل خاطرى "
ولما احتلت فلورنس مقعدها فى العربى , ناولته ربطة صغيرة وهى تقول " لقد صنعت هذه الهدية الغيرة
لبول . خدها مع حى . والآن يا والتر , ليبارك الله . لا تتسنى أبداً . أنك الان اخى يا والتر , بعد أن
مات بول .

الفصل الرابع عشر " وجوه جديدة "

ذهب مستر دمبي لتناول الإفطار مع صديقه الميجور باجستوك قبل أن يخرجوا في رحلة الى المينجوتون ذات يوم .

- " دمبي , أننى سعيد برؤيتك . أننى فخور برؤيتك . لا يوجد رجال كثيرون فى قارة أوربا يمكن أن تقول لهم جوى باجستوك هذا الكلام - ولكن جوى فى الواقع فخور بأن يراك , يا دمبي " .
- يا ميجور أنك لطيف للغاية .

ولم يناقش مستر دمبي هذه النقطة . لقد كان فى وحدته وانفراده سعيداً بصحبة الميجور . ولا يمكن أن يقال بأنه كان يشعر بالميل العميق نحوه , ولكنه كان يلين وينجذب لحديثه .

- لقد كنت تتطلع الى الطريق يا سيدى ...فهل رأيت صديقنا ؟

- تقصد مس توكس ...لا يا ميجور

- تلك العجوز الغبية ...تتطلع الى أعلى ...فى الزواج يا دمبي .

- أننى اسف لها

ورؤيت مس توكس فى تلك اللحظة فى نافذتها تروى زهورها .

- " ان طموحك هو غباء يا سيدتى " قال الميجور , وهو يطوح يده فى الهواء فى اتجاه مس توكس التى

لم تكن تراه " ولو كان هذا الطموح يرتد الى اذنك ليصمك بالغباء فحسب , لما أزعجتى فى شئ ,

ولكن يغيظنى أن تصبى القوم الكرماء الذين لا يشكون فى نياتك فىكون هذا جزاؤهم على ! أكرامهم لك "

- " يا ميجور " قالها دمبي , وقد أحمر وجهه " أرجو ألا تعنى بقولك هذا ان مس توكس من الغباء بحيث

أها

- يا دمبي , أنا لا اعنى شيئاً . ولكن جوى رجل محنك يا سيدى , وجو يقول لك , يا دمبي , أن امراة

طموح شريرة تسكن هنا .

وارسل مستر دمبي نظرة غاضبة فى ذلك الاتجاه .

وقبل أن تسير العربة بعيداً , لوحت مس توكس بمنديلها الأبيض وهى تقف فى نافذتها . واستقبل مستر

دمبي هذه التحية ببرود شديد . وبدا على الميجور السرور الشديد لذلك .

ولم يجد مستر دمبي متعة أو راحة في تلك الرحلة . كانت كل الأشياء تبدو له مظلمة , باردة , وبلا حياة .

أن ولده قد ذهب , وبقيت ابنته . لماذا تخير الموت موضوع امله دونها هي .؟ كان تفكير مستر دمبي يدور حول هذا الأمر طوال الرحلة .

وفي الصباح التالي , في ليمنجتون أكان مستر دمبي والميجور يسيران معاً , عندما رأيا كرسيًا يجرى على عجلات , قادمًا نحوها , وبه سيدة جالسة . وعلى الرغم من أن تلك السيدة لم تكن شابة صغيرة السن , إلا أن وجهها كان متوردآ , كما كانت ملابسها وحركاتها أقرب إلى ملابس الشبابات وحركاتهن . وعلى جانب الكرسي ذى العجلات كانت تسير شابة صغيرة السن , أنيقة جميلة , ومتكبرة جداً .
- " يا عزيزتي أدث " , قالها السيدة التي في الكرسي في نبرات بطيئة شاذة , " هذا هو الميجور باجستوك " .

وهرول الميجور إلى الأمام , وأخذ يد السيدة التي في الكرسي ورفعها إلى شفتيه . ثم ألحنى في انخفاض شديد للسيدة الأخرى .

- " هل تسمحين لي أن أقدم لك صديقاً يا سيدتي ؟ . مستر دمبي , مسز سكيوتون . مستر دمبي . مسز جراجر . أن صديقي دمبي , يا سيدتي , هو رجل قوى معروف في أضخم مدن العالم " لندن " ...
- لا يوجد من لا يعرف أهمية مستر دمبي . قالت مسز سكيوتون .

وشكرها دمبي لهذه التحية بخفض رأسه . ثم ألثفت إلى السيدة الشابة قائلاً :

- هل تعيشين هنا يا سيدتي ؟

- كلا , لقد ذهبنا إلى عدة أماكن كثيرة . أن ماما تحب التغيير .

- " أوكد لك يا مستر دمبي " قالت مسز سكيوتون " أنني من أنصار الريف المعجبين به . أنني لا احب المجتمعات . أن الأبقار تجتذبن . وما اريده هو الوفاء والأخلاص . أنني أنشد الصراحة وعدم التكليف
لقد أصبحنا نتصنع كل شئ بشكل مرعب فظيع . "

ثم دعت بعد ذلك مستر دمبي لزيارتهم في أى مساء وانجنى الميجور ومستر دمبي . وحيثهم السيدة الكبيرة بحركة من يدها كالتى تلوح بها الفتيات . أما الشابة الصغيرة فقد احتت رأسها أنحناء خفيفاً للغاية وتلفت الميجور ومستر دمبي وأخذتا يتبعانهم بعيونهما وهما تغادران المكان .

- " تبدو لي أنها راقية جداً " قال مستر دمبي .

- " راقية يا سيدى " أحاب الميجور " أن السيدة المبجلة مسز سكيوتون يا سيدى , هى أخت المرحوم اللورد فينكس , وعمة اللورد الحالى . أن العائلة ليست غنية , ولكن من ناحية الأصل والعرافة , يا

سيدى , فأن " وأخذ الميجور يسير ويأتى بحركات كما لو كان لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره بالكلام .

- أنت كنت تخاطب الأبنه , كما لاحظت ...بقول يا مسز جرانجر
- " ادث سكيون , يا سيدى تزوجت الكولونيل جرانجر وهى فى سن الثامنة عشرة . ثم مات زوجها فى العام التالى لزواجهما . وهى الآن لم تبلغ العام الثلاثين من عمرها بعد .
ولقد كان فى أمكانها أن تتزوج بعد ذلك عشرين مرة , لو لا أنها متكبره جداً . .
وبعد ذلك ببضعة أيام , عندما زار مستر ديمى والميجور مسز سكيون , وجداها مستقلقيه بين حواشى أريكة وثيرة . وكانت أدث تقف الى جوار آلة موسيقية تعزف عليها , وهى تبدو أروع جمالا وأكثر كبرياء عما كانت عليه من قبل .
- " أرجو , يا مسز جرانجر " , قال مستر ديمى : وهو يقترب نحوها " ألا تكون نحن السبب فى أيقاف عزفك ؟ "

- أنتم ؟ . أوه , لا
- لماذا اذن لا تستمرين , يا عزيزتى أدث ؟ قالت مسز سكيون .
- لقد توقفت كما بدأت . استجابة لهواى
- هل تعرف يا مستر ديمى , أننى وحببتي ادث نكاد فى الواقع أن نختلف فى بعض الأحيان ..
- ليس تماماً , فى بعض الأحيان , يا ماما ؟ .
- أوه ليس تماماً أبداً , يا حببتي . أن هذا لكفيل بأن يكسر قلبى .
وعندئذ قال مستر ديمى لادث " يبدو أنه لا يوجد لديكم اصحاب كثيرون هنا .
- كلا , نحن لا نرى أحد
" الواقع " قالت مسز سكيون وهى مستقلقيه على أريكتها , أنه لا يوجد أناس هنا نهم بأن نصطحب معهم .

ثم أنظر مستر ديمى الى عدد من الرسوم المتناثرة فى الحجرة , وسأل أدث " هل ترسمين ؟ " .

- نعم

- وهل تعزفين ؟

- نعم

- وهل تغنين ؟

- نعم

وأجاب المرأة الصغيرة على كل هذه الأسئلة بطريقة غريبة , كما لو كانت غير راغبة في الأجابة .
- هل لي أن أوصل في سماعتك ؟ قال مستر دمبي .
- اوه بالتأكيد , اذا كنت ترغب في ذلك .
وجلست الى قيثارها , ونهض مستر دمبي ووقف يسمع الى حوارها ونهضت الشابة الجميلة المتكبرة بعد ما
فرغت من أدائها وتلقت شكر مستر دمبي وثنائه بطريقة تظهر عدم الأهتمام , ثم أتجهت مباشرة الى البيان
واخذت تلعب .
وغنت ادث الأغنية الى غنتها ابنته الغير محبوبة لأخيها الميت . ولكن مستر دمبي لم يعرفها . ولو كان
عرفها , فأيه اغنية لفلورنس كانت لتحرك عواطفه .

الفصل الخامس عشر " أنباء جديدة عن العم سول "

كانت فلورنس تعيش وحيدة في المنزل الكبير الخاوى . ومر يوم أثر يوم وهى لا تزال تعيش في وحدتها .

وكانت كثيراً ما تتخيل حياتها في سيرة مختلفة , فيما لو كان والدها يحميها , حتى انها كانت , في بعض اللحظات تكاد تعتقد أن هذه الصورة حقيقة واقعة . وفي أحيان أخرى , كانت تخال أن امها لا تزال حية , وأنها تعانقها في حب وسعادة وحنان . ولكنها له من سجن وأسى , حين كان يحل المساء ويهبط الظلام , ولا أحد هناك يؤنس وحشتها , ويخفف من لوعتها !! .

ولم يكن أبوها يعرف كم كانت تحبه . كانت صغيرة جداً ولم تكن تدرى كيف تعبر عن حبها . على انها عولت على الصير ومحاولة التعلم , حتى يأتي يوم يعرف فيه أنها تحبه كثيراً . واصبحت تلك فكرة حياتها كلها .

وفي ذات صباح , قالت فلورنس لسوزان ينبر " كم مر من الزمن دون أن نحصل على أخبار من والتر ! - وقت طويل بالتأكيد يا مس فلوى . كما أن بيرسن يقول - ولكن ماذا يهمنا ما يقول ! - ماذا يقول يا سوزان ؟ هل تخبرينى ؟ .

- يقول أنهم لم يعرفوا من قبل سفينة ذهبت في هذه الرحلة وتأخرت أنباؤها مثل تلك السفينة التي أقلت والتر .

- يجب أن ازور عم والتر.....هيا نذهب الى هناك في الحال , يا سوزان واستقبلتهم العم سول عند الباب . وعلى المنضدة , وفي جميع أنحاء الحجرة كانت هناك خرائط يتتبع عليها العم التعيس خط سير السفينة المفقودة في البحر .

ولاحظت فلورنس في الحال أن هناك تغييرى فد اعترى الرجل العجوز .

- أنت لست على ما يرام ..- قالت فلورنس في حنان - أنك قلق جداً , أنا متأكد أنك لست على ما يرام " .

- أننى في أحسن حال يمكن أن يكون فيها رجل في مثل سننى .

وبينما شرعت فلورنس في مغادرة المكان , تناول العجوز يديها ورفعهما الى شفتيه , ثم أسرع بها الى عربته في الخارج بطريقة غريبة .

وفي الصباح التالي أوقف الكابتن كتلى , الذى كان مع سول جلز حين زارته فلورنس , بواطسة روب
الغلام الذى كان يعمل فى الدكان .

- ما الأمر . زار القبطان

فقدم له " روب " حزمة من المفاتيح وطرد مغلق .

" وعندما استيقظت هذا الصباح , قال روب , وجدت هذه على وسادتى . وكان باب الدكان مفتوح
ومستر جلز غير موجود " .

وما أن تناول القبطان الربطة حتى فتحها وقرأ الان :

يا عزيزى ند كتلى , على هذا توجد وصيتى لا تفتحها قبل مضى عام . أو عندما تحصل على أخبار أكيدة
من عزيزى والتر . واذا لم يصلك شئ منى أو لم ترى مرة أخرى فتذكر صديقاً قديماً , سوف يذكرك فى
حب وحنان حتى النهاية . وأرجوك أن تحتفظ لوالتر بيت فى المكان القديم , حتى نهاية الوقت الذى
ذكرته , على الأقل لا تبحث عنى , فسوف يكون ذلك دون جدوى , ووداعاً يا عزيزى , من صديقك
المخلص . سولومون جلز .

وخشى القبطان أن يكون صديقه العجوز " سول جلز " قد أنتخر , متأثراً بحزنه وقلقه على والتر .

وبحث الكابتن عن صديقه القديم فى كل مكان بالمدينة . وظل أسبوعى كاملاً يقرأ أسماء المفقودين ومن
عشر عليهم فى جميع الصحف , وكان يخرج كل ساعات النهار ليتعرف على سولومون جلز .

وأخيراً يأس الكابتن كتلى , وشرع يفكر فيما يجب عمله بعد ذلك وشعر القبطان بان الاحتفاظ بمنزل
والتر فى المكان القديم هو أول واجباته . وهكذا قرر الكابتن أن يعيش حيث كان يمتلك يولومون جلز
دكانه . وان يستأنف عمله فى صناعة الادوات الصغيرة , ويرى ماذا سيكون من ذلك .

ولكنه كان يعلم أن ذلك يستلزم تركه لجناحه فى منزل مسز ماكستينجر , وأنها لن توافق على ذلك
أطلاقاً , وسوف تمنعه بكل وسيلة . ولهذا قرر الكابتن الهرب منها .

وذهب القبطان لمنزل ماكستينجر للمرة الاخيرة .

- هل تسمحين يا سيدتى ؟ قال الكابتن " وضميره يؤنبه بشدة " هل تسمحين بقبول أيجار ثلاثة شهور
مقدماً ؟ " .

- " ولماذا يا كابتن كتلى ؟ " . أجابت السيدة فى حدة او هكذا ظن أنها تتكلم معه بجدة .
وارتعب الكابتن جداً .

- أنى لا أجد الاحتفاظ بنقودى يا سيدتى . أكون شاكرآ جداً لو قبلت .

- حسناً , يا كابتن كتلى ..أنا لا أستطيع أن ارفض هذا الطلب .

- وهل تسمحين , يا سيدتى . باعطاء ثمانية عشر بنساً لكل فرد من صغار العائلة .
وهناك هرع اليه اطفال مسز ماكستينجر كخلية النحل ومكثوا معه , الى أن اضطر الكابتن أسفاً حزيناً
لصرفهم وفي سكون الليل وضع الكابتن أشياءه الثقيلة فى صندوق , قاصدى تركها هناك , وربما الى الابد
, الا اذا وجد يوماً ما رجلاً جريئاً شجاعاً يستطيع أن يأتى الى المتزل فى طلبها . وفى منتصف الليل ,
أطلق الكابتن لساقيه العنان .
ولا يستطيع أن أسف ما قاساه الكابتن فى اليوم التالى من فرع ومخاوف كلما رأى قبعة امرأة تمر فى
الطريق , كما لا يستطيع أن أحصى عدد المرات التى قفز فيها خارجاً من الدكان ليتجنب من تخليهم
عائلة ماكستينجر هاجمين عليه .
على أن الكابتن كتل , قد أستطاع مع كل ذلك , أن بفحص الدكان , ويدخل عليه قليلاً من
التحسينات .

الفصل السادس عشر "أدث المتكبرة"

كان الوقت ظهراً حين وصل الميجور الى حجرة مسز سكيوتون , ووجدها مستلقية على أريكتها كعادة تختسى كوباً من القهوة .

- أجلس , قالت السيدة " أجلس بعيداً جداً عني , لا تقترب مني , فأنا متعبة هذا الصباح " .
ثم سألته مسز سكيوتون عن حال صديقه .

- " دمى , يا سيدتى " أجاب الميجور , " هو خير حال يمكن أن يكون فيها رجل فى مثل حالته . أنه فى حال تعس يا مدام . أنه واقع فى الحب , هذا الدمى " .

- " لا أستطيع ان افهم ما ترمى إليه " , قالت مسز سيكيوتون . " هناك إشارة الى ادت فى كلامك . أنظن أنه جاد فى ذلك , يا عزيزى الميجور ؟ هل تنصح بالتحدث اليه , أو يتركه لحاله ؟ "

- " هل سوف نواجه لأدث جرانجر , يا سيدتى ؟ " قال الميجور وهو يضحك ويقهقه بشدة .
- " كيف نستطيع أن نواجه ؟ " تساءلت المرأة .

- " أن دمى يا مدام " قال الميجور , " صيد ثمين . ودمى , يا مدام جاد فى رغبته . أتركى دمى لحاله يا مدام . افعلى كما فعلت من قبل ; لا تفعلى أكثر من ذلك , وثقى بجوزيف باجستوك الى النهاية " .

- " هل تظن هذا حقيقة يا عزيزى الميجور " . قالت مسز سكيوتون .

- " أننى متأكد من ذلك , يا سيدتى . أن السيدة الجميلة مسز سكيوتون , وصديقتها باجستوك سوف يتحدثون كثيراً عن ذلك فى المستقبل , فى زهو وانتصار , حين يشاركان فى ثروة منزل ادث دمى " .

وتوقف الميجور فجأة لينطلق فى قهقهة عالية , ثم لم يلبث أن أردف فى لهجة جادة " ان مستر كاركر ساعد دمى الأيمن , قد حضر " .

- هذا الصباح ؟ سألت مسز سكيوتون .

- " نعم . هذا الصباح " أجاب الميجور , وتابع " ان مستر دمى يريد من مستر كاركر أن يجمع له المعلومات عن أدث دون ان يخبره دمى بشئ ما اذ ان دمى متكبر , يا سيدتى , كشيطن الكبرياء ذاته "

- " خصلة بديعة " , قالت مسز سكيوتون بعد ما غادر الميجور الحجرة " أين كنت ؟ " .

- " لقد قلت لى أنك مشغولة فبقيت بعيداً " اجابت دون أن تدير رأسها .

وكان الأزدرء الهادئ الساكن يلوح على وجهها الجميل .

- " يا ابنتي العزيزة " , بدأت مسز سكيون .
 - " لست بعد امرأة " , قالت ادث بابتسامه .
 - " يالك من غريبة الأطوار اليوم يا عزيزتى !
- لقد أتى الميجور باجستوك بأحسن تحية من مستر دمى , وهو يقترح بأن نتناول معه الأفطار غدآ ثم تركب الى " وارويك " و " كينلورث " . هل تذهبين يا أدث ؟
- هل اذهب ! قالت : وقد احمر وجهها جدآ , وأخذت تتنفس بصعوبة وهى تنظر الى امها .
 - " أعلم أنك سوف تذهبين , يا عزيزتى " قالت الأم دون اكتراث " هاك خطاب مستر دمى يا ادث "
- .
- اشكرك . لا رغبة عندى لقراءته "
 - " أذن يحسن أن أرد عليه بنفسى " قالت مسز سكيون .
- وفى المساء التالى , بعد رحلة مع مستر دمى والميجور مستر كاركر جلست السيدتان بمفردهما . وكانت مسز سكيون مستلقية على أريكتها . أما أدث فكانت تجلس صامتة على انفراد , الى جوار قيثارها . وأخيراً قالت مسز سكيون فى حدة .
- " لماذا لم تخبرينى أنه على موعد هنا فى الغد ؟
 - " لأنك تعرفين ذلك , يا أماه " ...اجابتها ادث فى تهكم . ثم أردفت تقول " أنت تعرفين أنه قد اشترانى , أو انه سوف يشترينى غدآ . لقد فكر فى الصفقة واخبر صديقه بها . انه فخور بهذه الصفقة . أنه يظن أنها تلائمها , وأنها قد أبتعت رخيصة الثمن ياللتعاسة أن اعيش لأرى هذا " .
 - ماذا تقصدين ؟ اجابت الأم الغضبية , " ألم تكونى منذ طفولتك"
 - " طفلة ! " قالت ادث , وهى تتطلع اليها . " متى كنت أنا طفلة ! ما الطفولة التى تركتها لى يوماً ما ؟ لقد كنت قبل أن أعرف نفسى أو أعرفك امرأة ما كرة , مختالة , ترسم الخطط , وتلقى الشباك للرجال " .
- ثم أردفت وهى تدق بيدها على جيدها الناصع الجميل " أنظرى الى أنا التى لم اعرف أبداً ما هو الحب المخلص والقلب الأمين . لقد تزوجت فى شبابى الباكر من رجل لم اشعر نحوه الأ بعدم الأكرثات أنظرى الى . بعد أن أصبحت أرملة - ماذا كانت حياتى لمدة عشر سنوات منذ وفاته ؟
- " لقد كنا نبذل كل جهد للحصول على زوج نحنى " أجابت الأم . هذه كل حياتك , لقد كان يمكنك الزواج بزواج طيب يا ادث عشرين مرة على الأقل , لو كنت قد قدمت التشجيع الكافى " .

- " أنى أحتقر نفسى " , قالت أدث . " كل ما أستطيع أن أقول هو أنى لم أحاول إيقاع هذا الرجل "

- " هذا الرجل ! أنت تتكلمين كما لو كنت تكرهينه " .

- " أتريدين أن اخبرك " قالت ادث , وعيناها مثبتتان على أمها " من هو الذى يعرفنا تماماً , والذى

اشعر أمامه بالهوان وفقدان الثقة أكثر من شعورى بذلك أمام ضميرى ونفسى ؟

- " هذا هجوم على الرجل المسكين الشئ الحظ , الذى يدعى مستر كاركر على ما أظن ! . أجب الأم

ببرود

وضغطت ادث بيديها على وجهها , وارتحف جسدها كله . ثم خرجت من الحجرة , فى خطوات ثابتة

منسمة بالتعالى والكبرياء , كعادتها .

الفصل السابع عشر " تغييرات فى المنزل "

بينما كان مستر دمبى فى ليمنجتون , كانت فلورنس تمسكت مع أصدقائها . وعند عودتها الى المنزل أخبروها أن والدها يريد التحدث إليها واسرعت فلورنس وهى وجلة خائفة الى الدور السفلى . وكانت تفكر فى طريقها إليه فى هل تقبله أم لا . ولكن قلبها كان تواقى اليه . ولهذا صممت أن تقبله .

غير أنها لم تجده جالساً بمفرده . كانت هناك سيدتان بالحجرة وتوقفت فلورنس .

- " فلورنس " قالها لها ابوها , وهو يمد نحوها فى برود ويسألها " كيف حالك ؟ " .

وتناول فلورنس يده , ورفعته الى شفيتها فى رقة وحياء , ولكن سحب يده بسرعة .

- ادث . هذه هى ابنتى فلورنس . فلورنس , هذه السيدة سوف تصبح فى القريب العاجل بمثابة والدتك .

- " اوه , يا بابا , ليتك تصبح سعيداً ! ليتك تصبح سعيداً جداً جداً طيلة حياتك ! " ثم أستلقت الفتاة وهى تبكى على صدر السيدة . وضمت السيدة الجميلة فلورنس الى صدرها . وانحنت فوقها , وقبلت خديها .

- " هل سوف تمر فى الحجرات " قال مستر دمبى , " ونرى ما يقوم به العمال ؟ " وقدم ذراعه لمسز سكينتون وهما يخرجان من الغرفة .

- " فلورنس لن تبدائى بكرهى ؟ " .

- " بكرهك أنت , يا ماما " صاحت فلورنس , وهى تلف ذراعها حول عنقها .

- " ابدئى بأن تظنى بى حسناً " قالت السيدة الجميلة " ابدئى بالثقة بأنى سوف أحاول أن اجعلك سعيدة , وبأنى مستعد لان احبك " . يا فلورنس . وداعاً . سوف نتقابل قريباً .

ومرة أخرى ضمت فلورنس الى صدرها , ثم تركتها تضم الى الآخرين .

وعندئذ أخذت فلورنس تؤمل فى أنها سوف تتعلم من أمها الجديدة الجميلة كيف تستحوذ على حب والدها .

الفصل الثامن عشر "قبل الزواج"

كانت فلورنس جالسة ذات يوم في غرفتها , تفكر في السيدة , حين رفعت عينيها قرأها واقفة في مدخل الباب .

- " ماما " صاحت فلورنس في فرح .

- " لست بعد ماما " , قالت السيدة في ابتسامة جادة , وهي تضع ذراعيها حول عنق فلورنس .

- " ولكنك سوف تصبحين كذلك قريباً جداً " صاحت فلورنس

- " قريباً جدى يا فلورنس ! قريباً جداً . هل كنت وحيدة منذ أن تركتك آخر مرة ؟ " .

- " أنا ... أنا أنا معتادة على الوحدة " ..أنا لا تهمنى على الأطلاق " .

وجلست أدت تتطلع اليها بعينيها اللتين يشع منهما الذكاء . وأخذت فلورنس تفكر كيف أن جمال هذه السيدة مختلف عما كانت تتوقعه .

لقد كانت تظنه من النوع المتكبر , بيد أنها بدت هادئة رقيقة تدعو الى الثقة والأرتياح .

وبعد أن تحدثا بعض الوقت , واخبرت فلورنس انها أتت اتأخذها الى بيتها الخاص .

- " سوف تمكثين معنا الى أن اتزوج " قالت أدت . " ارغب في أن يعرف كل منا الآخر , ويثق به

جيدى يا فلورنس " .

- " أنت لطيفة جداً معى , يا أمى العزيزة " .

" دعيني أقول لك الآن , لان هذه تكون الفرصة المناسبة " قالت ادث وهي تتلفت حولها لتتأكد من أنها

منفردتان , وتحدثت في صوت خفيض " دعيني اخبرك بأنه حين أتزوج واسافر لبضعة أسابيع , يجب أن

تعودى الى منزلك هنا , لأن هذا يجعلنى فى راحة أكثر . لا يهمنى أى شخص يدعوك للبقاء . عودى الى

منزلك هنا . أننى اعرف جيداً ان افضل مكان لك هو منزلك ...ياعزيزتى فلورنس "

- سوف أعود الى المنزل فى يوم الزفاف ...يا ماما

- أننى أعتمد على وعدك هذا . والآن , هيا اعدى نفسك للذهاب معى يا بنتى العزيزة .

وقالت مسز سكيثون عند دخول ابنتها مع فلورنس " كيف حال حبيبتي فلورنس ؟ يجب أن تأتى

وتقبلينى " .

فذهبت فلورنس وقبلتها .

- " لقد سمعت دون شك يا عزيزتى الصغيرة " اردفت مسز سكيوتون " أن أباك الذى نجبه جميعاً لدرجة العبادة , سوف يزف الى حبيبتي ادث بعد أسبوع من اليوم " .

- لقد علمت ان الزفاف قريباً جداًولكنى لم اكن اعرف التاريخ " فلورنس " .

- " يا عزيزتى ادث " قالتها أمها فى فرح " أمن الممكن انك لم تخبرى فلورنس ؟ " .

- ولماذا اخبر فلورنس ؟ تساءلت ادث فى حدة وصرامة أثارت دهشة فلورنس .

وعندئذ اخبرت مسز سكيوتون فلورنس بأن اباهما سوف يحضر لتناول الغداء . وارتكبت فلورنس عند

سماع ذلك . وكلما اقترب الوقت أنفاسها . ولم تجرؤ على الذهاب قرب النافذة خشية أن يراها من

الشارع ولم تجرؤ على الصعود الى الدور العلوى لأخفاء عواطفها خشية أن تقابله فجأة , وهى تمر

خارجة عند الباب .

" أننى أسمع الآن ! صاحت فلورنس وهى تقفز فجأة . أنه آت واثر صوت مستر دمى الغريب فى ابنته

بشدة . وجرت الفتاة إليه ووضعت يديها حول عنقه , وقبلت وجهه , ثم أسرع خارجة من الحجرة .

وهكذا اوشكت استعدادتك أخيراً على الانتهاء يا عزيزى دمى حتى ترتيبات المحامى ؟ " مسز سكيوتون "

.

- " نعم , يا مدام لقد اخبرونى المحامون بان الحجة قد أصبحت معدة جاهزة . وعلى ادث أن تتكرم

بتحديد موعد لأنهاء العمل .

وجلست ادث كتمثال رائع بديع , فى جماله , وبروده , وسكونه

- " ليس لدى ما اقترحه . سوف نكون ذلك حتى تريد وترغب , قالت وهى لا تكاد تنظر الى دمى "

لا توجد لدى مواعيد " .

- لا مواعيد يا عزيزتى ادث ! قالتها لها بينما لديك الف موعد مع كل أنواع التجار ! .

- ألها من صنعك , انت ومستر دمى تستطيعان ان ترتبا هذه الأمور بينكم " ادث " .

ولم يكن مستر دمى ليعترض على طريقة زوجة المستقبل أو يمتعض منها . لقد كان على العكس , سعيداً

بالظن أن هذه المرأة الجميلة المتكبرة سوف تتمعه وتسليه فى حسن ألها سوف تكون باردة مع اصدقائه

وضيوفه كما كان هو معهم شخصياً .

ومر الأسبوع سريعاً . وتعدد خلاله الزيارات لحال القبعات وملابس السيدات والخياطين وتجار الجواهر

والمحامين وباعة الزهور ومحلات الحلوى والفظائر , كل ذلك استعداداً للزفاف . وكان على فلورنس أن

تذهب الى حفل الزفاف . وكان عليها , تبعاً لذلك , أن تخلع ملابس الحداد وترتدى فستاناً جميلاً لتلك

المناسبة .

أما أدث فكانت لا تنظر الى شئ , ولا تهتم بشئ . وفي الليلة الأخيرة من الأسبوع , قالت مسز سكيون
لمستر دمبي :

- " يا عزيزى دمبي , سوف تترك لى فلورنس غداً , عندما تأخذ منى حبيبتي الغالية الحلوة أدث " .
فأجاب مستر دمبي , بأنه سوف يفعل ذلك بسرور .

فأدرات ادث رأسها فجأة . وتحول عدم أكرائها في لحظة خاطفة الى اهتمام شديد بالغ . وأخت تنصت
بانتباه لما يقال .

ولما اصبحا منفردين اخيراً , تركت ادث النافذة للمرة الأولى في ذلك المساء , وابتعدت الى امها .

- " أصغى لى , يا أمى " قالت ادث , " يجب أن تبقى هنا بمفردك حتى أعود , والا اقسام بأنى سوف
ارفض الزواج بهذا الرجل في الكنيسة .

وتطلعت الأم لابنتها بنظرة يبدو فيها الفزع .

- " أنه يكفى " قالت ادث بثبات " أن نكون على ما نحن عليه , أننى لن اسمح بفساد مخلوقة بريئة

لأرضى الف أم مثلك . أنت تفهمين ما أعنى تماماً . أن فلورنس يجب أن تعود الى منزلها " .

- " أنت بلهاء يا ادث " صاحت الأم الغضبية . هل تتوقعين أنه يمكن لك أن تعيشى فى سلام فى ذلك
المنزل ما لم تتزوج فلورنس وترحل بعيداً عنه ؟

- " أسالينى أو أسالى نفسك , اذا كنت أتوقع السلام أبداً فى ذلك المنزل , وأنت تعرفين الجواب . لقد
قلت أن فلورنس يجب أن تعود الى منزلها .

- " دعيها تذهب " صاحت الأم , " ماذا يهمنى أنا من هذه الفتاة ؟ " .

- " ألها تممنى كثيراً " قالت ادث . " ألها تفسد بالدروس التى تلتقتها , طالما استطيع أن امنع ذلك .

سيرى فى طريقك الخاص يا أماه شاركى كما يحلو لك فيما كسبت , اصرفى المال , وتمتعى به , وكونى
سعيدة كما تريدن . لقد نلنا الغرض من حياتنا . أننى اصفح عن دورك فى شرور الغد وآثامه . وبإيادى
الله يصفح عما قمت به أنا من دور " .

ثم ألقت بتحية المساء الى والداتها وذهبت الى غرفتها الخاصة . ولكن روحها القائمة المتعبة لم تستطيع أن
تل الراحة . فهناك فى أعماق الليل المدلهم , شرعت ادث جرائج تفكر فى زواجها , وحسدة بلا صديق
, صامتة لا تتكلم , متكبرة لا تشكو برح الخفاء .

وأخيراً لمست ادث , دون قصد الباب مفتوح الذى يؤدى الى الغرفة التى كانت ترقد بها فلورنس فى ملئ
شبابها وجمالها .

وأحست ادث أنها منجذبة نحوها . واقتربت ادث من فراشها . وطفرت الدموع من عينيها وهي ترقع على ركبتيها , وتضع رأسها المتصدع على الوسادة الى جوار الفتاة النائمة . وهكذا أمضت ادث جرائر الليلة التي سبقت يوم زفافها .

الفصل التاسع عشر " الزفاف "

عند باب الكنيسة في ذلك اليوم , كان القوم ينظفون الفناطس والحشايا والسجاجيد , ويتحدثون عن حفل الزفاف .

وفي منزل مستر دمبي , في نفس الوقت , كانت هناك حركة وضجيج وعجيج . وترك مستر دمبي حجرة ارتداء ملابسه وصعد الى الى غرفة الاستقبال في سترته الجديدة الفخمة .

وقرّع الباب , ودخل الميجور في ملابس أنيقة كذلك .

وركب مستر دمبي , وميجور باجستوك , ومستر كاركر الى الكنيسة معاً . ثم صار هناك زحام على الباب . ودخلت السيدة الجميلة في خطوات ثابتة متعالية , لا يبدو على وجهها أى اثر لمعانة الليلة السالفة . ثم وقفت هادئة , منتصبه , ذات أجلال .

وقعت العروس بأمضائها في الكتاب المعد لذلك , وأتى الجميع لتهنئتها .

ونزلت مس توكس ببطء من مكافها في أعلى الكنيسة . وكانت عيناها حمراوتين ومنديلها مبللا . وعند التفكير في مستر دمبي بكتب مس توكس مرة أخرى وهى في طريقها الى المنزل .

أما مستر توتس , صديق بول القديم في المدرسة , فقد غادر الكنيسة وقد جن حياً وشغفاً بفلورنس .

والآن , وصلت العربات الى بيت العروس . وانمال عليها مزيد من التهاني بهذا اليوم الذى يعد أسعد الأيام . وسرت مسز تشك لأن تجد ادث شامخة متكبرة , بيطبعتها , كآل دمبي تماماً .

وبعد ما تناول الجماعة افطارها , نهض ابن العم فينكس والقى خطاباً قصيراً , قوبل بالتصفيق الشديد , ثم قامت ادث لترتدى ملابس السفر . وما أن ظهرت ثانية حتى هرعت فلورنس نحوها لتودعها .

ولوحت ادث بيدها مودعة , ثم اختفت سريعاً .

وأرعى الليل سدوله . وجلست فلورنس لتقرأ , ولكنها لم تستطع القراءة تلك الليلة . وأغلقت كتابها الذى لم تستطع أن ترى كلماته بوضوح , لأن سحابة كانت تستقر أمام عينيها , وكانت أمها وأخوها الميت يشعان في رداء من نور كالملائكة وسط تلك السحابة . ووالتر أيضاً ذلك المسكين المتغرب , أوه , أين هو الان .

الفصل العشرين " أنباء عن تحطم سفينة "

كان كابتن كتل يعتقد أنه من المحتمل أن يدوم له الأمن والسلام طويلاً كان يعرف شخصية مشنز ماكستينجر القوية ذات الصلابة والعناد وكان يرجح أنها قد كرسست وقتها للبحث عنه والقبض عليه وهكذا " كان يعيش كابتن كتل حياة هادئة جداً , ولا يغادر مسكنه الا بعد هبوط الظلام ولم يكن الكابتن يفكر أبداً في المقاومة , فيما لو أمسكت به مسز ماكستينجر ولكن اشياء أخرى بدأت تشغل بال الكابتن كان لم يسمع بعد شيئاً عن سفينة والتر أو عن سول جلز ولم يكن قد أخبر فلورنس باختفاء الرجل العجوز , لانه لم يجد لديه الشجاعة لذلك وكان مساء بارداً مظلماً من أمسيات الخريف , وكان الكابتن كتل قد أمر بأبقاد المدفأة داخل حجرة الجلوس الصغيرة وكان المظرب يسقط مدراراً والرياح تهب شديدة عاتية وبينما كان الكابتن يقف بنظرة حزينة على وجهه , وهو يفكر في والتر , قرع باب الدكان . وفتح الرجل فرأى شابا يقول :

- أوه , كيف حالك يا مستر جلز ؟ .

وكانت هذه التحية موجهة الى الكابتن . , وأردف الزائر قائلاً دون توقف :

- " أشكرك , أننى فى خير حال , أشكرك . أن أسمى توتس - مستر توتس " .

ثم أستانف مستر توتس كلامه ثانية .

- " يا مستر جلز "

- اسمى كتل .

- أوه! هل لم أستطيع رؤية مستر جلز لأنه ...

- انت لا تستطيع أن ترى سول جلز , لأنه ليس هنا . أنا لا أعرف أين ذهب , ولماذا أختفى .

- ولكن يا الله , أن مس دمبى لا تعرف ...

- ولماذا يجب أن تعرف ؟ سألها الكابتن فى صوت خفيض " هل أنت قادم من عند مس دمبى ؟

- " أعتقد هذا " قال مستر دمبى وهو يقهه . " أننى أذهب أحياناً لأزور مس دمبى . ولقد كنت فى زيارتها عصر اليوم . وبينما كنت خارجاً , ارتنى سوزان هذه الصحيفة , قائلة أنها قد أخفتها عن مس دمبى , لأن بها نبأ عن شخص تعرفانه هى ومس دمبى .

- " هل أقرأ لك هذا النبأ ؟

فأوما الكابتن . واخذ مستر توتس يقرأ الأتى من باب أخبار السفن :
" بقلم \ سوثها ميتن .

أن السفينة ديفانيس بقيادة هنرى جيمس التى وصلت اليوم الى هذا الميناء تقرر أن رجال المراقبة قد رأوا قبل الغروب بنصف ساعة , بعض من قطع من حطام سفينة تطفوا على بعد ميل تقريباً . وارسلت السفينة قارباً صغيراً لمعاينة الحطام , فاكتشف جزءى من مؤخرة السفينة , استطاعوا أن يقرأوا عليه الكلمات والحروف التالية " صن أند أي... " بسهولة . ولم تر أياه اثار لجثث موتى على الحطام العائم . ولا شك فى أن السفينة المفقودة " صن أند أير " التى كانت فى طريقها الى باربادوس , قد تحطمت فى الاعصار الأخير وأن كل شخص على ظهرها قد لقي حتفه " .

- " والتر , يا غلامى العزيز . وداعاً يا والتر لقد كنت أحبك " . ثم تابع كتل كلامه وهو يتطلع الى نيران المدفأة " لم يكن من دمى ولحمى , ولم يكن له بنون ...ولكن أشعر الآن عند فقد والتر , بما يشعر به الأب التآكل عند فقد ولده أخبر السيدة الصغيرة بأن كل شئ قد انتهى ..أنتهى !
- أوه ..أننى شديد الأسف حقاً . ولكن ماذا تظن أن مس دمى سوف تتأثر كثيراً يا كابتن جلز -
أقصد , يا مستر كتل ؟

- " ماذا ! " صاح الكابتن , " عندما لم تكن مس دمى قد شبت عن الطوق بعد , كانا متحابين كزوج من الحمام الصغير .

- " ألحانا كذلك حقاً , قال مستر توتس , وقد سقط وجهه الى أسفل .
- " لقد خلق كل منهما لأخر " قال الكابتن فى حزن , " ولكن ما الفائدة الآن ؟ " .

الفصل الواحد والعشرون "الزوجان السعيدان"

الأشواء تبرق في النوافذ هذا المساء , ووهج النيران الأحمر يشع الدفء على الستائر والطنافس الناعمة البديعة المنظر . والعشاء معد للتقديم , والمائدة قد بسطن في شكل رائع جذاب , مع أنها قد أعدت لأربعة اشخاص فقط . أنها المرأة الأولى التي ينظم فيها المنزل للسكنى بعد التغييرات الاخيرة التي أجريت عليه . وهم يتوقعون وصول الزوجين السعيدين في أية لحظة .

وأخيراً وصل الزوجان ! لقد وقفت عربة عند الباب . ونزل مستر دمبي وعروسه وسارا الى الداخل . - " يا حبيبتي ادث " صاح صوت على الدرج , " يا عزيزى دمبي ! " . ثم طوقت مسز سكيثون الزوجين السعيدين بذراعيها . ونزلت فلورنس الى القاعة كذلك , ولكنها لم تتقدم . ورائها ادث , وأسرعت لتقبلها .

- " كيف حالك يا فلورنس ؟ " قال مستر دمبي , وهو يمد أليها يده .

وبينما فلورنس ترفع يده الى فمها , وهى ترتعش , وقعت عيناها على عينيه . وكانت نظرتة باردة , غير أنها رات من خلالها اهتماما وانعطافاً أكثر من ذى قبل . ولم تجرؤ على أن تنظر في عينيه ثانية , ولكنها شعرت بأنه ينظر أليها مرة أخرى بحنان وأهتمام .

- " ياعزيزى دمبي " , قالت مسز سكيثون " لقد جعلوا من المنزل قصرآ فخماً " .

- " أنه جميل " , اجاب مستر دمبي , وهو يتطلع حوله " كل ما تستطيع النقود أن تعمله قد عمل , على ما أعتقد " .

- " وماذا لا تستطيع النقود أن تفعل يا عزيزى دمبي ؟ .. " مسز سكيثون سألته " .

- أنها قوية جدى يا مدام .

ونظر الى زوجته , ولكنها لم تفه بكلمة واحدة .

وأعلن حلول موعد العشاء . ومرت ادث أمام الأواني والقطع الذهبية والفضية المرصوة على الصوان الجانبي كما لو كانت أكواماً من القاذرات , ولم تلق نظرة واحدة على الاشياء الجميلة من حولها .

وأخذت مكانها الى المائدة للمرة الأولى , وجلست الى الوليمة كالتمثال الساكن .

ولأن مستر دمبي نفسه , كان كالتمثال الى حد بعيد , فقد سر بأن يرى زوجته الجميلة باردة , متكبرة لا تتحرك ! .

وحالا بعد تناول الشاي , ذهبت مسز سكيون الى الفراش وكذلك غادرت ادث الحجره فى سكون ولم تعد ثانية . ولما دخلت فلورنس الى حجره الصالون لم تجد أحداً هناك سوى والدها الذى كان يذرع الحجره جيئة وذهابا .

- " عفواً " , هل أخرج , " يا بابا ؟ " قالت فلورنس فى تردد عند الباب :

- " كلا " أجاب مستر دمي " تستطيعين أن تتدخلى وتخرجى من هنا كما تشائين يا فلورنس . هذه ليس حجرتى الخاصة " .

ودخلت فلورنس , وجلست الى منضدة صغيرة بعيدة , وقد وجدت نفسها للمرة الأولى فى حياتها منفردة ببيها .

وبعد أن سار فى أرجاء الغرفة بعض الوقت , ذهب مستر دمي وجلس فى أحد الأركان , وغطى رأسه بمنديل , واستعد للنوم .

وكان يكفى فلورنس ان تجلس هناك وتراقبه , وهى ترفع بصرها الى كرسيه بين حين واخر . كانت سعيدة بالظن بأنه يستطيع أن ينام بينما هى جالسة معه فى نفس الحجره , وأنه لا يتضايق من وجودها الذى كان يقلقه فى الماضى .

ماذا يا ترى كانت أفكارها تكون لو كانت قد عرفت أنه راقبها جيداً , وأن المنديل الذى على وجهه كان يسمح لبصره بالتحرك ذات اليمين وذات اليسار . وأن عينيه لم تفارقا وجهه لحظة واحدة ؟ ؟ أنه ما أن ألقى بصره عليها , حتى أضحى غير قادر على ان يحول عينيه بعيداً عنها .

هناك لحظات من الرقة والحنان فى حساسة أفسى وأصلب الرجال - وأن مرأى فلورنس فى جمالها الأخاذ , وقد استدرت الى أمراة مكتملة دون علمه وملاحظاته , قد بعث الحنان والانعطاف فى نفس ذلك الرجل الجامد المتكبر . وكلما أطال النظر أليها , زاد حنانه وانعطافه . لقد أمتزجت أنوثتها المكتملة بطفولتها التى كان يحبها , فلم يستطع أن يفصل بين الأثنتين - وشعر برغبة لأن يحدثها ويدعوها اليه . وكان على وشك أن يناديها قائلاً " فلورنس , تعالى الى هنا ! عندما وقفت الكلمات فى حلقة لدى سماعه وقع خطوات على السلم . كانت هى أمراةه ودخلت أدث الى الحجره , وقد استبدلت فستان العشاء برداء واسع فضفاض , وحلت رابط شعرها . ولكن هذا التغيير لم يكن هو الذى أذهله منها .

- " فلورنس يا عزيزتى " قالت ادث , " كنت ابحت عنك فى كل مكان " .

ولما جلست الى جانب فلورنس , كاد مستر دمي أن ينكر زوجته لما حل بها من تغير عجيب . لم تكن ابتسامتها الجذابة هى الشئ الوحيد الجديد الذى رآه منها , ولكن طريقتها , وأسلوبها , ونبرات صوتها ,

ورغبتها الشديدة فى أن تُبهج وتُسعد الفتاة الجالسة الى جوارها , كل تلك الأشياء كانت جديدة عليه تماماً , حتى أنه قال فى نفسه " عجباً ! هذه ليست ادث " .

- " أخفضى صوتك يا أمى العزيزة . أن أبى نائم " .

وتطلعت ادث الى الركن , ورأى دمى وجهها فى جلاء ووضوح .

- " لم أكن اظن أنك هنا , يا فلورنس . هيا , تعالى معى يا عزيزتى " .

- " بابا لن يتوقع أن يجدى , عندما يستقيظ , على ما أظن ؟ " فلورنس تقول هذا , وهى مترددة " .

- اتظنين أنه يتوقع ذلك , يا فلورنس " قالت لها ادث " .

وأحنت فلورنس رأسها الى الأسفل , ثم لم تلبث أن نهضت . ولقت ادث يدها حول ذراعها , وخرجا من الحجرة كأختين متحابتين , ودمى يرسل نظره أليهما خلسة , وفى تعجب .

وظل دمى , بعد ذلك , جالساً فى ذلك الركن من الحجرة , دون ان يحس بمرور الوقت . ودقت الساعة ثلاث دقائق قبل أن يتحرك من مكانه فى تلك الليلة . وكان طيلة الوقت ييحلُق فى الموضع الذى كانت فلورنس جالسة فيه . واشتد اظلام الحجرة , بيد أن سحابة تجمعت على وجهه , أشد أظلاماً من الليل .

الفصل الثانى والعشرون "حفلة تدشين المنزل"

قام مستر دمبى ومسز سكيون بتنظيم عدد من الحفلات , لمناسبة الزواج , وللتعرف على رجال المجتمع الراقى وسيداته . وتقدم مستر دمبى قائمة برجال الأعمال البارزين لدعوتهم على العشاء . وقدمت مسز سكيون قائمة أخرى , بالنيابة عن أبنيتها التى لم تُبد أى اهتماماً بهذا الأمر .

وكان مستر دمبى يسير فى ملابسه الأنيقة الفخمة بقلق فى قاعة الاستقبال , فى انتظار حلول العشاء . وحضر أولاً مدير إحدى الشركات العامة , وكان رجلاً واسع الثراء , واستقبله مستر دمبى بمفرده . وكان ثانى الحاضرين مدير أحد البنوك , وكان يقلق عنه أنه يستطيع شراء أى شئ فى العالم . وهندئذ ظهرت مسز دمبى فى أوج جمالها وكبرياتها . وكانت فلورنس الى جوارها . ولما دخلا معاً , أظلم وجه مستر دمبى كما أظلم ليلة عودته الى المنزل مع عروسه .

وزاد عدد القادمين سريعاً , ومن بينهم المديرين , ورءساء مجلس , وأدارات الشركات وسيدات المجتمع , وابن العم فينكس , والميجور باجستوك , واصدقاء مسز سكيون .

وبينما فلورنس جالسة بمفردها , أحست بالدور الصغير الذى يلعبه والدها فى كل ما يجرى حولها , ورات , فى ألم , لم كان يبدو قلقاً ضيق الصدر .

وكانت مسز دمبى تستقبل ضيوفه فى برود وكبرياء . ولم تظهر رغبة أو اهتماماً فى ادخال السرور عليهم , ولم تفتح فمها بكلمة واحدة بعد أن استقبلتهم .

واخيراً , انصرف المدعون جميعاً , ولم يبق بالحجرة سوى مستر دمبى ومستر كاركر , الذين كانوا يتحدثان معاً , ومعهما مسز دمبى وأمها .

وتقدم مستر كاركر الى الأمام فى تأدب , ليستأذن فى مغادرة المكان , وهو يقول :

- أرجو الا تتعب مشاق هذه الليلة البهيجة مسز دمبى فى الغد .

- " مسز دمبى " قال مستر دمبى " قد وفرت على نفسها التعب . أننى أسف لأن اقول , بان مسز دمبى , أننى اود لو كنت قد أتعبت نفسك أكثر من ذلك قليلا , فى هذه المناسبة " .

فنظرت اليه فى كبرياء , ثم حولت بصرها بعيداً دون أن تتكلم .

- " وأننى اسف يا مدام " وتابع مستر دمبى كلامه " أنك لم تعرفى أنه على وادبك أن تستقبلى أصدقائى باحترام اكثر من ذلك . يجب ان اقول كل , أن بعض هولاء الذين تجاهلتهم الليلة , يا مسز دمبى , انما يشرفونك بأيه زيارة يؤدنها لك " .

- الا تعرف ان هناك شخصاً اخر في هذا المكان ؟ " أجابت ادث وهي تنظر اليه بثبات .
- " كلا ! يا كاركر ! أرجوك لا تنصرف " . صاح مستر دمبي !! مستر كاركر , كما تعرفين يا مدام , هو موضع ثقتي " .
- " ارجو أن تسمح لي بالانصراف " , قال مستر كاركر .
- " لقد ذكرت لمسز دمبي " قال مستر دمبي في لهجته المتعالية " الشئ الذى أعترض عليه فى سلوكها والذى انتظر أن تعالجه وتصححه " ثم أردف وهو يؤمى برأسه لكاركر " كاركر , أرجو لك ليلة سعيدة " .
- ولم تنبس الزوجة بنبت شفة . كانت تتطلع مبخلقة اليه , ثم لم تلبث أن ارخت عينيها بأزدراء عميق , كما لو كان غير جدير بأن تتحدث اليه .
- هل كان مستر دمبي , فى تلك الليلة , واقفاً فى الظلام بمحض الصدفة , حين رأى زوجته بعد ذلك بساعة واحدة , قادمة بالشموع فى يدها من الغرفة التى ترقد بها فلورنس , وقد تغير وجهها كلية . ذلك الوجه الذى لم يقو هو أبدى على تغييره ؟ .

الفصل الثالث والعشرون "مسز ماكستينجر تجد كابتن كتل"

كان كابتن كتل جالسا مع صديقه مستر بنسى , يبحثان وصية جاز " التي فتحها الكابتن بعد مرور سنة كما طلب صديقه العجوز " عندما حدث شئ ما . وكان هذا الشئ مرعباً , حتى أنه لولا مساعدة الصديق بنسى , لأضحى الكابتن كتل في عداد المتى من تأثير تلك الساعة الرهيبة .

كيف أن الكابتن يؤمئذ أغلق الباب فقط , دون أن يحكم الرتاج من الداخل , فهذا سر غامض لم نعرف حتى الآن له تفسيراً . ولكن الذى حدث نتيجة لذلك السهو أم الأهمال , هو أن مسز ماكستينجر لم تلبث أن أفتحمت الباب في خفة وسرعة , حتى ان كابتن كتل وجد نفسه فجأة يتطلع إليها في دعر شديد , وقد سحب وجهه , وارتجف بدنه من قمة الرأس الى اخصص القدم .

ولكن ما أن تملك الكابتن نفسه بعد برهة وجيزة , وادرك ما زقع فيه من مأزق , حتى أندفع نحو الدرج , غير مكترث بما قد يلحق به من أذى . كان لا يفكر لحظئذ الا في اخفاء نفسه ولو في باطن الأرض .

- "أوه , كابتن كتل " صاحت مسز ماكستينجر وهي توقفه " أتجرؤ على أن تنظر في وجهى , ولا تطأطئ رأسك خجلاً ! .

وكانت لا تبدو على الكابتن أى جرأة أو شجاعة .

- " أوه , لقد كنت حمقاء حين وضعت الثقة في غير محلها وأويتك في منزلى يا كابتن كتل ! . صاحت مسز ماكستينجر " لا يوجد أحد في شارعنا لا يعرف أنني كنت أخسر نقودى من جراء شراحتك في المأكّل والمشرب " .

وتوقف المرأة لتلتقط انفاسها .

- " ثم بعد ذلك تمرب منى ! أردفت مسز ماكستينجر وهي تصيح " وتختفى عنى عاماً بأكمله ! يا كابتن كتل , اريد أن اعرف ما إذا كنت ستعود الى المنزل . "

وبدأ على الكابتن الاستعداد لأن يذهب معها . وقال لها في ضعف وخوف " قد أهدب , ولكن لا تحدثنى بهذه الضجة " .

- " آى , آى , آى " قال بنسى وهو يهدئها " ها , ارحلى يا سيدتى الصغيرة " .

- " ومن تكون أنت . " سألته في تعظم وكبرياء .

وذهل الكابتن حين رأى صديقه بنسى يقنع تلك المرأة العاتية بالتدريج , ويعود إليها بزجاجة من الروم " نوع من الخمر " , ويهدئ من أعصابها الثائرة , دون أن يبدو أنه يقول لها شيئاً . ثم لم يلبث بنسى أن

ارتدى سترته وهو يقول " يا كتل , أنا ذاهب لمرافقتها الى المنزل , ولم مر الوقت ولم يظهر بنسى , راودت الكابتن الشكوك وخشى ان مسز مكاستينجر قد احتفظت بصديقه رهينة لحين حضوره . وعندئذ فكر الكابتن , كرجل ذى شرف , فى أن يضحى بحريته الشخصية فى سبيل اعتناق صاحبه . أخذت تلك الأفكار كلها تشغل عقل كابتن كتل طويلا دون أن يحضر مستر بنسى . وأخيراً , عندما يأس الكابتن , وشرع فى خلع ملابسه , سمع صوت عجلات تقترب نحو المنزل . ولم يلبث مستر بنسى أن دخل محيياً .

وارتعب الكابتن للظن أن مسز مكاستينجر قد عادت فى نفس العربة , وأنه لن يستطيع التخلص منها . ولكن بنسى كان لا يحمل معه سوى صندوق كبير , سرعان ما عرف الكابتن أنه صندوقه الخاص الذى كان قد تركه فى منزل مسز مكاستينجر .

وما أن ترك الكابتن بمفرده مرة أخرى , حتى شرع يفكر ثانية وبعمق فى صديقه سول جليز العجوز . كان الكابتن لم يفقد الأمل بعد فى عودة ذلك الصديق , وكان يظن أنه قد يراه يوماً ما , ولكن سول العجوز لم يأت .

الفصل الرابع والعشرون " علاقات منزلية "

كان مستر دمبي يتصرف نحو تجاه زوجته الأولى بكبرياء وبرود , كشخص أعلى وأعظم منها , اذ كان يخال نفسه كذلك . وكان يظن أن الشخصية المتعالية لزوجته الثانية , سوف تضاف الى شخصيته هو , مزيد من العظيمة ! . ولم يكن يفكر أبداً في إمكان وقوف هذه الشخصية ضده .

نعم أن القدر المكتوب عليه , كان هو ان يخضع ويُجرد من سطوته , حيث كان يبغى القوة والسلطان والسطوة .

متى كانت تلك التي استطاعت أن تكسب زوجته . كما أكتسب قلب ابنه من قبل ؟ من كانت هي , غير تلك الصبية الوديدة , التي كان هيتطلع اليها دائماً في قلق وخوف , خلال طفولتها التي قضتها بلا أم , خشية أن يكرهها يوماً ما , والتي وقع فعلاً ما كان يخشاه بخصوصها , لأنه كرهها ذات يوم في أعماق قلبه ؟

لقد كان هو وهي دائماً غريبين أحدهما عن الآخر . كانت لا تشبه في شئ . وكان جمالها يجذب الناس الذين لا يجذبون اليه .

وفي مواجهة كبرياء وعجرفته , كانت تقف كبرياء زوجته في ملئ قوتها وعنفتها . وكان مستر دمبي مصمم على أن يبرهن لها على علوه وتفوقه عليها .

وفي ذات ليلة , ذهب اليها في غرفته الخاصة , ' بعد أن عادت الى المنزل متأخرة .

- " مسز دمبي " , قال وهو يدخل " يجب أن اقول لك بضع كلمات " .
- " غداً " أجابت زوجته .

- " أنت تخطئين فهم مركزك " قال دمبي , وتابع " أنني معتاد على تخير أوقاتى بنفسى , لا أن يختارها الى الآخرون . أن سلوكك لا يعجبني . لقد طلبت اليك أن تعديله سابقاً . والآن أنا اصر على هذا الطلب "

فنظرت اليه في ثبات , واغلقت شفيتها المرتعشتين .

- " أنت مكلفة جدى , يا مدام " قال مستر دمبي " أنت شرعة طماعة , تضعين قدراً كبيراً من المال فى الاندماج فى نوع من المجتمعات غير ذى جدوى بالنسبة الى . ثم يجب أن تفهمى بوضوح , يا مدان اننى يجب ان احترم واطاع . أننى أطالب بهذا كحق من حقوقى , واعتبره شيئاً يجب الوفاء به , لقاء المركز الضخم الذى سُنفته أليك بزواجى منك " .

- ولم تفه ادث بأية كلمة . وظلت عيناها مثبتتين عليه .
- لقد علمت من أمك يا مسز دمي , أن هواء بريتون أفضل لصحتها . ولقد تفضل مستر كاركر " . فتغير لون وجهها فجأة . واحمرت وجنتاها غضباً . ولاحظ مستر دمي هذا التغيير , غير أنه استمر في كلامه .
- " لقد تفضل مستر كاركر بالترول الى هناك وتأجير منزل لفترة ما . وعندما تعودين الى لندن , سوف أستخدم مسز بيبكين كمديرة للمنزل . أن منزلاً كهذا يحتاج الى عقل ذكي مفكر " .
- وعندئذ جلست مسز دمي , وهي لا تزال تبخلق فيه بشدة , وتدير سوراً حول ذراعيها .
- " لقد لاحظت منذ لحظة , أن ذكرى لمستر كاركر قد قوبل منك بطريقة غريبة وعندما ذكرت لك سابقاً أمام هذا الوكيل الوثوق به , أعتراضى على الأسلوب الذى استقبلت به ضيوفى , كنت تعارضين فى أن يشهد ذلك الموقف يحسن الأ تفكرى ثانية فى مثل هذا الأعتراض يا مدام , وتعودى نفسك على وجوده فى مثل تلك المناسبات , فيما اذا لم يتغير سلوكك كما أريد "
- وبوجه ثابت لم يتحول , أجابت مسز دمي فى صوت خفيض :
- أنتظر ! وبحق السماء ! يجب أن تتكلم معاك . هل كنت قد طلبت أليك الزواج بي ؟
- " أنه غير ضرورى بالمرّة يا مدام , أن نبدأ مثل هذا النقاش .
- واستمرت الزوجة قائلة " هل ظننت أنى احببتك ؟ هل حاولت مرة أن تكسب قلبى ؟ "
- " ربما لا " . أجاب ببرود .
- " لقد كنت تعرف من أنا " . لقد كنت تعرف تاريخى العام . هل تظن أن تستطيع أن تجربنى على الطاعة . وابتسم مستر دمي فى استهتار , كما لو كان قد سئل هل يستطيع دفع عشرة آلاف جنيهه .
- " ولكننى سوف أرجوك رجاء ؟ . أنى لا أشعر نحوك بعاطفة ما , كما تعلم . ولعلك لن تهتم بأن أحاول ذلك . وأنا اعرف ايضاً أنك لا تحس نحوى بأية عاطفة . غير أننا مرتبطان معا , وفى العقدة التى تربطنا , ينطوى آخرون ايضاً . دعنا اذن نتصرف أهدنا تجاه الأخر بأسلوب افضل من هذا . وبمرور الوقت , قد تنشأ بيننا صداقة ما " .
- " يا مدام " قال لها دمي فى لهجة بالغة التعجرف والكبرياء " لا أستطيع أن أقبل أى عرض غريب كهذا " .
- " اذهب اذن , يا سيدى ! " قالت له فى كبرياء , وتشير بيدها ناحية الباب . " لقد تحطمت الثقة بيننا تماماً . اننا , من الآن فصاعداً , أبعد ما نكون أهدنا عن الآخر " .

الفصل الخامس والعشرون " انفصال "

لاحظت فلورنس في حزن الكراهية التي نشأت بين أبيها وبين ادث , وعرفت أن المرارة تزيد بينهما يوماً بعد يوم .

رأت والدها بارداً صلباً مع ادث , ومعها . أليس من المحتمل أن أمها كُنات أيضاً تعيسة لنفس هذه المعاملة , وأنها ماتت حزناً وكمداً ؟ غير أنها كانت لا تلبث أن تفكر كيف أن ادث تعامل والدها بازدراء , فتحمس سريعاً بأنه من الخط البالغ أن تحب شخصاً يقف ضد والدها . ثم تأتي بعد ذلك كلمات رقيقة من ادث , فتتهز هذه الأفكار هزاً عنيفاً , وتعلها تبدو للفتاة كمنكران لجميلها . وهكذا اخذت تقاسى فلورنس من حبها لكليهما , اكثر مما كانت تقاسى وهي تعيش وحيدة في المنزل الحزين , قبل أن تمبط أمها الجديدة الحلوة عليه .

غير أن شيئاً واحداً كان يريح قلب فلورنس , ذلك أنه لم يكن لديها ظل من الشك في ان ادث تد وسعت , بجها لها وانعطافها نحوها , الشقة التي تفصلها عن والدها .

ولما رأت " سوزان نير " نعاسة سيدتها الصغيرة , عولت على الذهاب لمستردمى والتحدث إليه . وعجب مستردمى , الذي كان جالساً يتفرس في نيران المدفأة , لدخول زائرته تلك .

- ماذا تريدين ؟

- لقد ظللت اثنتي عشر عاماً أرعى مس فلوى , التي لم تكن قد تعلمت الكلام بعد , حين حضرت الى هنا في البدء . وأن الخدمة الآمنة المخلصة تعطيني الحق في الكلام , كما أعتقد , يا سيدى , ولا بد لي من أن أتكلم " .

- " ماذا تعنين , يا امرأة ! " قال مستردمى , وهو يتطلع اليها في غضب " كيف تجرؤين ؟ " .

- " مس فلوى " قالت سوزان نير " هي اخلص , واجمل , واكثر البنات صبراً . أنه لو أتيح لأى سيد في إنجلترا أن يعرف قدرها جيداً , لفضل أن يفقد كل ثروته وعظمته , على أن يجلب الحزن الى قلبها الرقيق " .

- " يا امرأة " صاح مستردمى " اتركى الغرفة " .

- " سوف أتم كلامى , ولو تركت المنزل برمته , هذا المنزل الذى قضيت به هذه السنين الطوال , ورأيت فيه أشياء كثيرة . لقد رأيت مس فلوى تحاول وتحاول وهى لا تزال بعد طفلة . ولقد رأيتها تنمو

, دون أى عون وتشجيع , وتتحول - شكراً لله - الى سيدة ناضجة . ولقد رأيتها دائماً أبداً تحمل ,
وُعامل بقسوة كل ذلك بعمق . اننى أجهر بأن هذا عار فظيع " .

- " ما هذا ! " قالت مسز بيبكسن , التى أصبحت الآن مديرة منزل مستر دمى , وهى تَدلف الى
الحجرة .

- " ما هذا ! " قال مستر فى غضب " ما هذا يا مدام ؟ لعمري أنه يحق لك أن تسألى هذا السؤال . هل
تعرفين هذا يا امرأة ؟ " .

- " كيف تجرؤين على الدخول الى هنا ؟ أخرجى حالا " . صاحت مسز بيبكين فى صوت خشن قبيح .

- اذا وجدت أناسا عصاة فى خدمتى يا مسز بيبكسن " , قال مستر دمى " فأنت تعرفين كيف تتصرفين
معهم . خذى هذه المرأة بعيداً " .

- " يا سيدى , أننى اعرف ما يجب أن أفعله " , اجابت مسز بيبكين " يا سوزان نيبير , لديك مهلة
مقدراها شهر واحد من الآن , تغادرين بعدها هذا المنزل " .

- " أننى أنوى أن أغادر هذه اللحظة . وأن عزائى أننى قلت اليوم شيئاً من الحق الذى كان يجب أن يقال
منذ زمن طويل " .

- وبهذه الكلمات , غادرت مس نيبير الحجرة .

وانتشرت الأنباء حالا فى المنزل ان سوزان ستذهب . ولما صعدت فلورنس الى حجرة سوزان , وجدت
أن سوزان قد أغلقت أحر حقيبة لها وجعلت عليها مرتدية قبعتها .

- " سوزان ! . اسوف تتركينى ! يا فتاتى العزيزة يا صديقتى القديمة ! ماذا أفعل بدونك ؟ هل تتحملين
فراقى هكذا ؟ " .

- " كلا , كلا , يا حبيبتي الغالية مس فلوى , أننى حقاً لا استطيع " قالت سوزان وهى تجهش بالبكاء "
غير انه لا حيلة لى فى الأمر . لقد أدت واجبى كاملاً " .

- " والى أين تذهبين يا سوزان " قالت سيدتها باكية .

- " لدى اخ فى الريف , يا سيدتى " قالت نيبير الكسيرة القلب . " سوف اذهب بالعربة الى هناك وابقى
معهُ " .

واحتضنت سوزان سيدتها الصغيرة مودعة , وهرعت فلورنس بدورها الى عناقها فى دموع .

- " أستميحك عذرى يا سيدتى " قال تولينسون خاجر الباب مخاطباً فلورنس " أن مستر توتس يرسل
تحياته وينتظر فى حجرة الأستقبال " .

واسرعت فلورنس الى قاعة الأستقبال .

- يا عزيزى مستر توتس , أننى متاكدة أننى استطيع أن اطلب منك خدمة . أيمكن أن اطلب اليك أن تهتم بسوزان حتى تركب العربة ؟ .

وفى الحال طلب مستر توتس من سوزان أن تتناول معه العشاء قبل القيام برحلتها . وبعد عشاء طيب , وتحيات كثيرة , أدخل مستر توتس سوزان فى عربة الليل ووقف الى جوار النافذة متردداً , حتى أوشك السائق على القيام , ثم قال فجأة :

- " اسمعى , يا سوزان ! مس دمى كما تعرفين "

- " اجل , يا سيدى " .

- " هل تظنين أنهما تستطيع ... ليس فى الحال ... ولكن بمرور الوقت ... بمرور وقت طويل هل تظنين

انها تستطيع أن ... ان تحبني ؟ قال مستر توتس المسكين .

- " يا لله , كلا . يجب أن اقول ان ذلك لن يكون ابدأ ...أبدأ " .

- " أشكرك " , قال مستر توتس " هذا لا يهم , أشكرك " .

الفصل السادس والعشرون "مستر كاركر , الوكيل الموثوق به"

وخرجت أدت بمفردها ذلك اليوم , وعادت مبكرة الى المنزل . وبينما هي تنزل من عربتها , خرج شخص في هدوء من القاعة وقدم لها ذراعه .

- " مدام ! هل أستطيع التحدث إليك لدقيقة واحدة ؟ " . قال كاركر

- هل هو أمر عاجل ؟

- عاجل جداً

- قبل أن استمع اليك , أرجو أن تستمع أنت الى . كنت قد تلقيت أمرا من الرجل الذى الآن للتو بتسليمى رسالة ما , فلا تحاول تسليمها , لاننى لن استلمها .

- أنه من سوء حظى أن أكون هنا لمثل هذا الغرض . أسمى لى أن اقول أننى قد أتيت الى هنا لغرضين . وهذا أحدهما .

- ذاك الغرض الأول ... قد أنتهى امره .

- لقد طلب الى مستر دمى . أن اكون رسوله إليك لأنه يعرف أنك لا تحببى ولأنه يعتبره اذلالا لزوجته أن تتلقى الأوامر عن طريقى . أن مستر دمى لم يعرف فى حياته من قبل كبرياء غاضبة و كراهية شديدة تقفان فى مواجهته .

وكانت ادث على وشك أن تقول " ولكنه سوف يعرفهما الآن " غرأها أن شفيتها لم تتحركا .

- " ثم لا يجب أن انسى الغرض الثانى من هذه المقابلة , يجب أن أرجوك بكل إخلاص أن تتحفظى فى اظهار حبك لمس دمى " .

- أتخفظ ؟ ... ماذا تعنى ؟

قال كاركر بصوت منخفض .

- أن تعليماته تقضى أن اخبرك أن سلوكك حىال مس دمى ليس مقبولا لديه . فاذا استمرت فى اظهار هذا الحب لها , فانك لن تود لها بذلك نفعاً .

- هل اعتبر ان هذا تهديد ؟

- هذا تهديد . ولكنه ليس موجهاً ضدك .

وقفت ادث تبسّم فى وجه باحتقار ومرارة . ثم تماوت كما لو كانت الأرض قد هبطت من تحتها , وكانت على وشك الوقوع لولا أنه اخذها فى ذراعيه . ودفعته ادث بعيداً , ووقفت فى مواجهته مرة أخرى , ويدها منبسطة ممدودة .
- ارجوك أن تتركنى . لا تقل شيئاً اخر الليلة .
وتناول يدها فى احدى يديه , وقبلها وانسحب .

الفصل السابع والعشرون "هروب أدث"

لم تكسر الأيام حدة الحواجر التي قامت بين مستر دمبي وزوجته .
وفلورنس , التي بلغت السابعة عشرة , كانت كثيراً ما تبق وحيدة حينئذ . ولما لاحظت أن ادث تتجنبها , ذهب الى غرفتها ذات ليلة .
- "ماما " , هل اغضبتك ؟
- كلا .
- لقد تغير سلوكك معي يا ماما العزيرة , أنني احس بأقل تغير , لأني احبك من كل قلبي .
- "يا حبيبتي فلورنس " أجابت ادث , وهي تنظر في عيني الفتاة اللتين كانت تنظران إليها في وله وحب " لا أستطيع أن اذكر لك سبب هذا التغير , ليس لى أن اقدم السبب , وليس لك أن تسمعيه . ولكن هذا ما يجب أن يكون "
- "هل سوف نصبح غريبتين , احدانا عن الأخرى , يا ماما ؟ " سألت فلورنس , وهي تتطلع الى ادث في خوف .
- لن نكون غريبتين تماماً , وسوف نكون هكذا في الظاهر فقط , يا فلورنس . لأنني لا ازال كما كنت من نحوك في أعماق قلبي , وساكون كذلك دائماً يا عزيزتي فلورنس , انه يحسن - بل أنه من الضروري - ألا ترى أحدانا الأخرى كثيراً .
- "على الدوام " سألت فلورنس .
- "لا اقول ذلك " , أجابت ادث " لست اعرف .
- "ماما " قالت فلورنس في لهفة ورقة " لقد اعتراك تغير ما " .
- " كلا . كلا يا حبيبتي . ثقي أنني لن اتغير في داخلني من نحوك , على الرغم من أن الأشياء تبدو مختلفة بيننا . لا تسأليني سؤالاً آخر . اذهبي , يا فلورنس . أن حبي وندمي يرافقانك دائماً! .
ومنذ ذلك الحين , لم تعد فلورنس وادث كما كانتا من قبل . كانتا لا تتقابلان لمدة أيام بأكملها , الا على المائدة , وبحضور مستر دمبي .
وفي اليوم السابق لعيد الزواج والدها الثاني بادث , أخذت فلورنس مقعدها الى مائدة العشاء . ولم يكن هناك حديث كثير على المائدة وسمعت فلورنس أباهما يتحدث الى مستر كاركر احيانا على أثناء العشاء .
ولما وضعت الحلوى على المائدة , قال مستر دمبي .

- أظنك تعرفين يا مسز دمى , أنى أخطرت مديرة المتزل أن جماعة سوف تحضر هناك باكر للعشاء "
- " أنا لا أتناول العشاء فى المتزل " أجابت مسز دمى .
- "لن تكون جماعة كبيرة العدد " أستأنف مستر دمى غير ملف بالا لردھا " ستكون حوالى اثنتى عشر أو أربعة عشر شخصاً " .
- أنا لا أتعشى فى المتزل ..كررت مسز دمى .
- لا توجد مظاهر يجب المحافظة عليها أمام الناس فى مثل هذه المواقف والمناسبات ..واذا لم يكن لديك احترام لنفسك ; يا مسز دمى - "
- " لا يوجد عندى شىء من ذلك " .
- " مدام " صاح مستر دمى , وهو يضرب بيده على المائدة " اسمعيني , من فضلك , أنى اقول أذا لم يكن لديك احترام لنفسك ..."
- وانا اقول أنه لا يوجد عندى ذلك . " أجابت ادث " .
- " كاركر , اخبر مسز دمى , أنه لم يكن عندها احترام لنفسها , بأن لدى بعض الاحترام لنفسى , ولذلك فأنا اصر على الترتيبات التى أعددتھا لباكر . "
- " اخبر سيدك ذا العظمة والجلال ...أنى سوف أتكلم معه فى هذا الشأن بمفردى " .
- " اننى ارفض أن اقدم لك هذه المنحة .
- " ان ابنتك موجودة معنا , يا سيدى
- أن ابنتى سوف تظل موجودة , ان من واجبها ازائى أن تعرف التصرفات التى تغضبني لتجنبها . وأنت اقوى مثل أمامها على هذه التصرفات .
- لن أحاول ايفافك ... " قالت الزوجة , وهى تجلس ساكنة تماماً . "
- " أننى لم ابي حين بدأت كلامى " قال مستر دمى , " أن ابنتى حاضرة , يا مسز دمى " .
- " وهكذا لا يكفيك " قالت ادث , وهى تشير بيد مرتعشة الى فلورنس " أن تنظر الى هنا , وتفكر فيما ارتكبته , وفى الالم الذى سببته لى باجبارى على عمل ما تريد . أنت الآن تضيف الى ذلك قسوة بالغة اخرى , بأن تريها أیه هوة تريدت أنا فيها . أنت تعلم أننى مستعدة لأجل خاطرها أن افعل ما تريد إذا استطعت - ولكننى لا استطيع أن اخضع نفسى تماماً لأرادتك وأصير عبدة ذليلة لك " .
- وتحول دمى الى فلورنس , وأمرها بان تغادر الحجرة . وأطاعت فلورنس الأمر , وهى تبكى .
- لن افعل شيئاً مما تطلب . " مسز دمى "

- "كاركر" قال مستر دمى مكشراً , " ان مسز دمى تضعنى فى موقف لا يتلاءم مع شخصيتى , وأننى يجب أن أوقف الآن هذه الأمور عند حدها . "

- " اخبره " قالت ادث موجهة حديثها الى كاركر , " أننى اريد الانفصال عنه , واخبره أننى مستعدة لأن يتم هذا الانفصال وفقاً للشروط التى يعيها هو , اذ أن ثروته لا قيمة لها عندى , غير أنه لا يمكن أتمام هذا الأمر بسرعة عاجلة " .

- " يا لسماء " يا مسز دمى , صاح زوجها , فى دهشة بالغة . " هل تعرفين من أنا , يا مدام ؟ ارتدين أن يقول الناس أن مستر دمى - مستر دمى , قد انفصل عن زوجته !! أنت غبية حمقاء " وانفجر دمى ضاحكا .

- ومزقت مسز دمى الجواهر التى كانت لامعة متألثة على جيدها , وذراعها وألقت بها على الارص . وبدون كلمة واحدة , تحركت نحو الباب , وهى تتطلع الى مستر دمى فى صرامة , قم غادرت الحجرة . وكانت فلورنس , قبلاًن تغادر الغرفة ; قد سمعت ما يكفى لأن تعرف أن ادث لا تزل تحبها . وأنها قد اخفت عنها تضحياتها لئلا تقلقها , كانت تريد أن تشكر ادث وتعبّر لها عن عرفانها بجميلها - واخذت فلورنس تتجول خلال المتزل على أمل ان تقابل ادث قبل الذهاب الى الفراش .

وكانت تسير ممرآ عندما رأّت مستر كاركر هابطاً على السلم بمفرده , وفتح مستر كاركر الباب نفسه , وتسلل الى الخارج بخف , ثم أغلق الباب وراه دون أحاث صوت .

وجرى الدم باردآ فى عروق فلورنس . وما أن تمالكت نفسها , حتى هرعت الى حجرتها , واغلقت بابها , ولكن حتى بعد ذلك , كانت لا تزال تحس بالرعب والخوف , كما لو كان هناك خطر ما يكمن الى جوارها .

وفى الصباح بحثت عن ادث مرة أخرى فى جميع الغرف , ولكنها لم تثرها لها . ومبكرآ فى ذلك المساء , قابلت فلورنس أدث وهى تتزل الدرج بمفردها .

وكم كان رعبها هائلا حين صاححت أدث فى وجهها قائلة " لا تفتربى منى . ابعدى عن طريقى - دعينى أمر ! لا تلمسينى ! .

ووقفت فلورنس على الدرج مغشياً عليها . ولم تعرف أكثر حتى الفت نفسها راقدة على فراشها . وصممت ألا تنام قبل أن تعود أدث , لتطمئن على أنها فى سلام وأمان بالمتزل .

ومر المساء , وهبط الليل , ثم أتى منتصف الليل , ولم تعد أدث . ولما اخبروا مستر دمى أن زوجته لم تعد الى المتزل , ارسل خادماً الى الأسطبلات لأستدعاء سائق العربة .

وعاد الخادم مع الحوذى , الذى قال أنه قد ساق العربة بسيدته فى الساعة العاشرة الى منزلها القديم حيث قابلها مستر كاركر .

ورأت فلورنس والدها , وقد ابيض لون وجهه جداً .
وأمسك شمعداناً , وذهب يعد ساعداً الى حجرة مسز ديمى . وفتح الباب وهرع الى الداخل . ولم يلبث أن القى على الأرض بكل رداء كان لزوجته منذ زواجها به .

وبينما هو يعيد تلك الملابس فى أكوام الى الأدراج , رأى بعض الأوراق على المنضدة : الحجة أليها عند زواجهما , ومعها خطاب . وقرأ فى الخطاب أنها قد قرأت مع كاركر , الرجل الذى اختاره هو لأذلالها وجرح كبريائها .

وكانت الشفقة التى تملك قلبها على والدها , هى الشعور الأول الواضح الذى تتميز فى نفس فلورنس على حزنها العميق . وأسرعت فلورنس نحو ابيها , وذراعاها ممدوتان , وهى تصيح " أوه يا عزيزى بابا !! يا عزيزى بابا " .

ولكنه فى سورة غضبه الهائل , رفع ذراعه القاسية , وضربها بشدة , فسقطت على الارض الرخامية .
ولحظة أن ضربها , انطلق فى سب ادث , واصفاً اياها بنعوت قبيحة , ثم أمرها بان تتبعها , حيث أنهما كانتا دائماً شغوفتين أحدهما بالأخرى .

ولم تنبس الفتاة بكلمة واحدة . ولكنها نظرت اليه , ثم لم تلبث أن صعد أنه حزن عظيم من أعماق قلبها . لقد رأت أنه لا يوجد لها أب على الأرض , وجرت كاليتيمة خارجة من منزله .

الفصل الثامن والعشرون "هروب فلورنس واكتشاف عجيب"

سرح فكر فلورنس في المرة الأخيرة الوحيدة التي تاهت فيها في مدينة لندن , مع أنها لم تكن حينئذ تائفة ضائعة كالآن , فسارت في ذلك الطريق حتى أتت الى منزل العم والتر . وما ان وصلت الى هناك سقطت مغشياً عليها .

ورفعها الكابتن كطفلة صغيرة في يديه , وقد شحب وجهه جداً ووضعها على نفس الأريكة القديمة التي نامت عليها قبل ذلك بزمن طويل .

- " كابتن كتل , أهو انت " صاحت فلورنس عندما أستعادت وعيها .

- أجل . أجل يا سيدتى الصغيرة .

- هل العم والتر هنا ؟

- " هنا , يا جميلتى ؟ " أجاب الكابتن " انه ليس هنا منذ زمن بعيد .

- أوه , يا كابتن كتل . انقذنى ! لا يوجد لدى من أستطيع الذهاب اليه في هذا العالم , لا تبعدين عن هنا !

- " أبعذك , يا سيدتى الصغيرة " صاح الكابتن " أنت يا فرح قلبى " .

وبهذه الكلمات , أغلق الكابتن الباب . . . , اخت فلورس يده وقبلتها .

- " لا بد لك من تناول الإفطار الآن " قال الكابتن , وبعد ذلك سوف تصعدين الى حجرة سول جلز العجوز , حيث تنامين كالملاك الطاهر .

وحتى لا تتعب , حملها الكابتن بين ذراعيها , على الرغم من أرادتها الى الدور العلوى , ثم قال لها

- " يا سيدتى الصغيرة ! أنت هنا فى أمان تام . ان ما تحتاجين اليه هو النوم . ولسوف أتركك الآن

تنامين . وحين تحتاجين الى شئ .. نادينى "

وما أن نزل الكابتن الى أسفل , حتى فتح باب الدكان ليتأكد من أن أجداً ليس بالخارج , وبينما هو

يفعل ذلك , سمع صوتا الى جانبه يقول " كيف حالك , يا كابتن جلز ؟ " .

ورأى انه مستر توتس .

- " كيف حالك يا بنى ؟ قال الكابتن .

- " حسناً أنى فى خبير حال , أشكرك يا كابتن جلز , قال مستر توتس " غير أنى الآن لست أرغب تماماً . ولا أعتقد أنى سوف اكون كذلك يوماً ما .

وكان مستر توتس يشير بهذا الكلام من بعيد الى حبه اليأس فلورنس .

- " يا كابتن جلز " قال مستر توتس , هل تسمح لى بكلمة معك ! انه شئ هام " .

- أن ترى , أنى مشغول هذا الصباح , فأذا استطعت أن تسرع فى كلامك , أكون شاكرآ لك " .

- " حدث وأنا سائر فى هذا الصباح مبكرآ فى هذا الصباح , وقد رجدت الباب مغلقاً " .

- " ماذا ! أكنت تنتظر هناك , يا أخ ؟ " سأل الكابتن .

- لم أقف لحظة واحدة . لقد كنت أظن أنك فى الخارج . ولكن الشخص الذى قابلته فجأة , ثم سرت معه بعيداً , طلب منى أن اخبرك ان تستعد لشئ هام .

- " تقول أنك قد قابلت شخصاً ! . " سأل الكابتن فى تعجب " .

- " أجل , ولكننى لا اعرفه بالتأكيد , يا كابتن جلز . غير انى عند وصولى الى الباب , وجدته هينتنظر هناك وقد رجاني أن اطلب منك الاستعداد والخروج الى ركن الشارع لمواجهة أمر هام جداً " .

وشكر الكابتن محدثه , واستاذن منه فى الذهاب على أن يعود بعد خمس دقائق, ثم خرج لمقابلة الشخص الذى بعث بهذه الرسالة الغامضة مع مستر توتس .

ولما عاد كان شاحب الوجه جداً , وبدا كأنى يبكى , ولم يقو على الكلام حتى شرب كوبا من الروم .

- " يا كابتن جلز " قال توتس برقة " أرجو الا يكون هناك ما يسىء " .

- اشكرك يا بنى , كلا على الأطلاق , قال الكابتن " ان الأمر على العكس من هذا تماماً " .

ولما غادر مستر توتس المكان , اغلق الكابتن الباب خلفه , وصعد ليرى فلورنس . وقرع بخفة على باب فلورنس , ولكنه لم يتلق جوابا

واستيقظت فلورنس بعد وقت طويل , حين كانت الشمس تمبط فى الأفق المغربى , وتفردت حولها نظرة دهشة , ثم لم تلبث أن تذكرت كل شئ .

- " يا جميلتى الصغيرة " قال الكابتن وهو يقرع الباب , كيف حالك ؟ .

- " يا صديقتى العزيز " صاحت فلورنس , وهى تمرع اليه , " أهو أنت ؟ " .

وشعر الكابتن بالفخر , وابتهج بنظرة السرورى التى لاحت على وجهها عند رؤيته .

- سوف انزل لاعد العشاء .

وبعد العشاء , وضعت فلورنس غليونه في يده ورجته أن يدخن وعندما أعدت له كأساً من الروم , ووضعتها أمامه على المنضدة , شعر بالتكريم والاعزاز . ثم اشعلت له الغليون وتطلعت اليه بابتسامة امتزج فيها الحب بالرعفان بالجميل حتى دمعت عينا الكابتن .

وفي اليوم التالي , كانت فلورنس اهدأ مما كانت عليه في اليوم السابق ولما كانت أضواء نيران المدفأة تسطع على حوائط وسقف الحجرة الصغيرة قطع الكابتن السكون الطويل بقوله :

- الم تسافرى بالبحر أبداً , يا عزيزتى ؟

- كلا

- انه لقوة هائلة جبارة .

- هل واجهت يوماً عاصفة مريعة ؟

- طبعاً يا عزيزتى , لقد تقابلت مع عواصف وأنواء كثيرة ..وتابع الكابتن : ولكننى لا اقصد نفسى بهذا الكلام , بل أعنى ابني العزيز والتر , الذى غرق , يا حبيبتى .

- لقد تغير وجهك . ما هذا ؟؟ يا عزيزى كابتن كتل , أننى ارتبعت لمرآك

- " هناك لآلى , وأخطار فى أعماق البحر , يا جميلتى " , وتابع الكابتن " وكم طوت اللجج من سفن عظيمة وقلوب شجاعة مقدامة ! بيد أن هناك أيضاً منافذ للنجاة فى هذه الأعماق , وأحياناً تنقذ رحمة السماء رجلاً ما , فيعود الى بيته بعد أن كان يظن ميتاً . "

وتتبعت فلورنس , وهى ترتعش , نظرتة التى كانت تتجه خلفها الى الدكان حيث كان مصباح يضى .

- " اثبتى , يا عزيزتى فلورنس ! تشجعى ! لا تنظرى حواليك الآن " ...وتابع الكابتن " أنظرى هناك - على الحائط " .

وكان هناك خيال على رجل على الحائط بالقرب منها . وقفزت ناهضة وتطلعت حولها , ثم صاحت صيحة هائلة , وهى ترى " والتر " جأى خلفها .

لم تكن تفكر فيه الأ كآخ , وادفعت فى ذراعيه . كان يبدو أملها وعزاءها فى هذا العالم .

ولم يشرق وجه الكابتن فى حياته أبداً من قبل , كما أرق يؤمئذ , وهو يجلس الى مائدة الشاى , مثقلاً البصر من فلورنس الى والتر , ومن والتر الى فلورنس .

وجلسوا هكذا حتى تقدم الوقت . ثم أستاذن والتر فى ترك المكان للنوم .

- أننى السبب فى رحيلك بعيدى " فلورنس الى والتر " .

- " اذا كان هناك ما يجعلنى سعيداً جداً برؤيتك والتحدث اليك الآن , فهو شعورى بأن القدر قد يتيح لى فرصة لتقديم خدمة لك "

وابتسمت فلورنس فى غبطة .

" لقد تغيرت " قال والتر .

- أنا تغيرت ؟

فقال والتر فى صوت منخف جداً " لقد تركتك طفلة صغيرة , وها انا الآن أجذك ...أوه , شيئاً مختلفاً جداً ... " .

وتناول والتر يدها فى كلتى يديه , ورفعها الى شفثيه وقبلها . لقد عرف الآن أنها أصبحت فتاة شريفة بلا بيت , ولكنها بدت ابعد كثيراً عما كانت فى أحلام صباه .

الفصل التاسع والعشرون "صديق صادق"

وفي ذلك الصباح , دخل مستر توتس مندفعاً الى حجرة الجلوس .
" يا كابتن جلز " قال توتس , لقد كدت أن افقد عقلي . أرجو أن أتحدث اليك على انفراد
- " أنظر هنا , يا أخ , قال الكابتن " , " هذا الشخص الموجود هنا هو والتر ابن اخ سول جلز العجوز ,
الذى كان يُظن أنه غرق في البحر " .
وبحلق توتس في والتر قائلاً " يا ألهي ! كيف حالك ؟. أنا ... أنا ... أنا أحشى أن يكون البلبل قد غمرك
بشدة يا كابتن جلز , هل تسمح لي بكلمة في الدكان ؟ .
وجذب الكابتن من سترته , وخرجا معاً , وهو يهمس في أذنه :
" ذلك الشاب اذن , يا كابتن جلز , هو الشخص الذى كنت تعنيه , حين قلت لي أنه ومس دمى قد
خلق أحدهما للآخر ؟ "
- نعم يا بنى , كنت أظن ذلك حينئذ "
- " أنه غريم كرية " , قال مستر توتس . وصمت لبرهة , ثم اردف قائلاً " أنه ليس , على الأقل غريم
كرية . كلا : اذا كانت عاطفتي فير أنانية حقاً يا كابتن جلز , فدعني أبرهن الآن على ذلك ! .
واندفع مستر توتس فجأة الى داخل حجرة الجلوس , وقال وهو يهز يد والتر مصافحاً .. " كيف حالك ؟
أرجو ألا يكون قد أصابك برد . أنا ... أنا سوف أسر كثيراً لو أتحت لي فرصة معرفتك . كل عام وأنت
بهير أن شاء الله "
- " أشكرك من كل قلبى "
- " يا كابتن جلز " قال مستر توتس , " أرجو أن تسمحوا لي الآن بالكلام في موضوع معين ... "
- " آى , آى , آى يا بنى " أجاب الكابتن " تكلم بحرية . تكلم بحرية "
- " اذن يا كابتن جلز " قال توتس " ويا مُلازم والترز . هل تعرفان أن مس دمى قد تركت أباهما
وذهبت الى حيث لا يعلم أحد ؟ "
- " مستر توتس " قال والتر " يسرنى أن أستطيع تهدئة . خاطرك . مس دمى في أمان وفي خير حال .
وأنه ليريح رجلاً كريماً مثلك ويُسعده أكثر أن يجد أنه يستطيع أن يؤدي لها خدمة ما . يا كابتن كتل ,
هل تسمح بأخذ مستر توتس الى الدور العلوى ؟

وكم كانت دهشة توتس وفرحته عظيمتين عندما رأى فلورنس حتى أنه لم يقو على الكلام! وجرى إليها , وأمسك بيدها , وقبلها , وذرف الدموع , ثم ضحك ضحكة خشنة .

- " يا عزيزى مستر توتس , أننى فرحة لرؤياك " قالت فلورنس .

- " أشكرك . أننى فى خير حال . أننى مدين لك بالكثير يا مسز دمى . أرجو أن يكون جميع أفراد العائلة بخير "

وقال مستر توتس ذلك دون أدنى فكرة عما كان يتحدث عنه .

- " لقد ذكر لى كابتن جلز والملازم والترز , يا مس دمى , أننى أستطيع ان أقدم لك خدمة ما " قال توتس .

- " اذا كنت تريد العثور عليها " قال مستر توتس , " فسوف أحضرها لك , يا مس دمى . وداعاً ! تستطيعين أن تتقى بى بعد كابتن جلز نفسه " .

وفكرت فلورنس طويلاً فى المخلوق الطيب , بعد أن غادرها بمزيج من الألم والسرور . لقد أصبحت أخيراً على قدر كبير من الضعف والرقه , اذ اثرت المشاق التى مرت فيها على صحتها . ولكن لم يكن هناك مرض جسدى يؤثر فيها . كانت تعانى وكمدآ فى النفس , وسبب ضيقها وجزئها كان هو والتر . فعلى الرغم من أنه كان مغرماً بها , وتوافقاً لرؤيتها , وشغوفاً بخدمتها , الا أن فلورنس لاحظت أنه يتجنبها . كان لا يأت الا اذ أرسلت فى طلبه . وأخيراً عولت على التحدث اليه كانت تعتقد أنها تعرف السبب فى انزوائه واحتجابه .

- " والتر " قالت له , أنت تذكر المرة الأخيرة التى رأيتك فيها قبل ان ترحل من إنجلترا ؟ فوضع يده فى صدره , وأخرج كيساً صغيراً .

- " لقد كنت أضعها دائماً حول عنقى ! ولو كنت قد غرقت فى أعماق البحر , لكانت قد استقرت معى هناك " .

- " هل سوف تلبسها دائماً , يا والتر , لأجل , لأجل خاطرى ؟ " .

- " حتى أموت ! " .

- " أننى سعيدة بذلك يا والتر . لقد كنت أنا سبب تحطيم أمانيك وآمالك . ولقد حاولت أنت أن تخفى ذلك عنى . أشكرك لذلك , يا والتر , ولكنك لن تستطيع ذلك . لقد قاسيت كثيراً جداً حتى أنك لن تستطيع تجاهل السبب فى كل ما أصابك من حزن وألم . لن تستطيع أن تنسى أنك بسببى نُقلت الى باربادوس . كل ما أريده يا ولتر . ألا تقاوم نفسك وتؤلمها من أجلى , بعد أن عرفت أنا الآن كل شئ !

وتطلع والتر إليها بوجه يكسوه العجب والدهشة .

- "أوه , مس دمبي" قال لها " لن أنظر الى دورك فى حياتى أبداً الا كشيء مقدس . أنه لا يسعدنى قدر أن أراك وأسمعك كما كنت تفعلين ليلة أن افترقنا , كما أنه لا بهجنى وبملائي بالثقة والاعتزاز بالنفس قدر أن أراك تحببى وتنقنين بى كأخيك . غير أنه ليس لى عليك حق . لقد تركتك طفلة صغيرة وها أنا الآن أجد أمامى امرأة مكتملة "

واحمر وجه فلورنس .

- " غير أننى أتخذ لنفسى هذا الحق " , أردف والتر , لما تميزت به أنت من قلب واثق , طيب , طاهر . ولكن كيف أجرؤ على أن أدعوك أختى , يا فلورنس ؟ لو كنت غنياً , لقلت أن هناك اسماً واحداً فقط تستطيعين أن تنادينى به , ويعطينى الحق فى حبك وحمایتك , وأننى غير جدير بهذا الأسم لولا حى الصادق العميق مع احترامى لشخصك "

وكانت راسها منكسة , والدموع تنحدر على خديها .

- " يا عزيزتى فلورنس ! يا أعز مخلوق لدى ! مرة أخرى وأخيرة دعيني أناديك باسمك الغالى , وألمس هذه البلد الرقيقة كعلامة على نسيانك أخت لى - لما قلت الآن "

- " كلا يا والتر " قالت فلورنس " لا أستطيع أن أنسى ذلك . لن أنسه مطلقاً . هل انت ... هل انت فقير جداً ؟

- " لست سوى سائح متجول فى الأرض , اكسب عيشى بالضرب فى عرض البحر . تلك مهنتى الآن "

قال والتر .

- " وهل سوف ترحل قريباً مرة اخرى , يا والتر " .

- " قريباً جداً "

- " اذا أخذتني زوجة لك , يا والتر " قالت فى رقة بالغة " فلسوف أحبك جداً . لن أضح فى سبيلك بشئ - فليس لى ما أضحى به , أو من أحزن لفراقه , ولكن كل حى وحياتى سوف يُكرس لك " .

وضمها والتر الى صدره , وأسند خدها الى خده , وعندئذ بكت طويلا على صدر حبيبها , وقد أضحت غير وحيدة , منذ تلك اللحظة , وغير مكروهة , أو مهلة , بعد .

الفصل الثالثون "الهارب"

الزمن قبل منتصف الليل بساعة , والمكان هو شقة فرنسية تتألف من ست حجرات .
وفي أصغر تلك الحجرات , كانت تجلس امرأة جميلة – هي ادث . وكانت بمفردها , ونفس تلك السيدة المتكبرة , التي تنظر حلوها باحتقار وازدراء . كانت تجلس وتنتظر .
وما أن سمعت صوت مفتاح في الباب الخارجى , ووقع خطوات في الصالة , حتى وهبت واقفة , وصاحت " من هناك ؟ " .
ودخل كاركر من الباب الخارجى , وأغلقتة خلفه . ثم تقدم نحوها , وهو يغلق جميع الأبواب ورائه .
وهندئذ تسللت يدها الى سكين قريبة في متناول على منضدة الطعام .
" لم أرك قط جميلة جذابة كالليلة " قال كاركر وهو يدها منها . وتناولت المرأة السكين بسرعة خاطفة .
- " قف مكانك ! " قالت ادث " وألا قتلتك " .
وطفح وجهه بالغضب والدهشة , ولكنه ضبط مشاعره , وقال في رقة :
- " هيا , هيا ! نحن الآن وحيدين , وبعيدان عن مرأى ومسمع كل شخص . هل تقصدين إثارة الخوف في نفسى بهذه الألاعيب ؟ .
- " أظن أنني أحشاك , لو كنت أحشاك , لما حضرت هنا في سكون الليل البهيم , لاقول لك في وجهك ما سوف أقول " .
- " وماذا تريد أن تقول ؟ " .
- لن أقل شيئاً حتى تعود الى ذلك الكرسي . لا تقترب منى ! لو فعلت ذلك لقتلتك بهذه السكين !
وعض الرجل شفته غيظاً , وكشر عن انيابه , وضحك ضحكة خشنة , ثم جلس في كرسيه في ضيق وقلق لم يستطيع اخفاءهما .
- " كم مرة خدعتنى وأنا امرأة متزوجة ؟ قالت ادث وهي تحدجه بنظرات قائمة قاسية " . كم مرة كشفت الغطاء عن جرح لتلك الفتاة الحلوة التعسة .؟ كم مرة أضفت جديداً للتعاسات التي تحملتها لمدة سنتين , واغريتني بالانتقام اليائس العنيف الاخرق ؟ .
- " ماذا , يا أدث ؟ اجاب الرجل " لقد كان هذا السلوك مناسباً بالنسبة الى زوجك التعس " فأجابته وهي تنظر إليه بأزدراء وكبرياء :
- كان يكفيني لاحتقاره وكرهه أن تكون أنت مشيره وناصحه .

- أكان هذا هو السبب في هروبك معي ؟
- نعم , وهذا هو السبب في وقوفنا الآن وجهاً لوجه , للمرة الأخيرة . لقد لعبت دور الخائن الأثيم ,
لقد خدعته و خدعت طفلة البرية و خدعت الجميع .
ولم يستطيع النظر إليها دون خوف أو وجل . لقد عرف أن كرهها لن يقف عند حد :
- " ألتفت الى تحذيري " قالت ادث " لقد خُدعت أنت أيضا كما يخدع جميع المخادعين الغشاشين .
لقد رأيت زوجي الليلة في عربة في الشارع !
وفي تلك اللحظة , رن صوت الجرس في الصلاة , فايض وجه كاركر خوفاً ورعباً . وفي لحظة خاطفة
كانت ادث قد دلفت الى حجرة النوم وأغلقت الباب خلفها . وظل الجرس يدق , ثم سمعت أصوات
مختلفة تتحدث معاً : ومسر كاركر من بينها صوتاً يعرفه جيداً .
واقترح كاركر باب غرفة النوم , غير أنهما كانت مظلمة وخاوية . وما أن رأى درجاً صغيرى على مقربة
منه حتى هبط عليه الشارع . وبينما هو يسير بعيد , شرع يتمتم باللحنات الساخطة على ادث . وهكذا
وصل الى بوابة فناء فندق حيث أستأجر عربة نقله الى باريس .
- " اسمع يا صديقى " قال السائق " أننى على عجل شديد , وارجو ان تسوق بأقصى سرعة ممكنة " .
ولم يكن يفكر في هدف معين . ثك انتفضت في خاطره ذكرى الأيام السابقة على زواج سيده الثانى .
وأخذ يفكر كيف كان يغار من ابن سيده , ومن ابنته , وكيف أحكم الحلقة حول فريسته بمهارة حتى
أن أحداً غيره لا يستطيع ان يعبرها . ثم اخذ يفكر كيف وقع في الحفرة التي ظل يحفرها لغيره طويلا ,
فانتهى به الأمر الى التشرد والقرار من وجه العدالة .
ومرة تلو المرة اخذ يصغى ويتسمع متلمساً صوت عجلات خلفه . ومرة اثر مرة كان يبدو له صوت
تلك العجلات واضحاً قوياً وهي تنهب الأرض للحاق به . غير أن تلك كانت أوهاماً مما تسيطر على
قلب الشرير الأثم الذى يتوقع الجزاء والقصاص في كل لحظة . ولم تلبث أن خبت النجوم , وأخذت
الشمس تصعد فى الأفق , وهو لا يزال يتطلع الى الخلف , ولا يرى مطارداً فى أثره على مرمى البصر .
كانت رحلته كحلم لا واقع فيه غير عذابه وآلامه هو . واندفع فى تلك الرحلة التعسة حتى وصل الى
باريس . ثم عبر البحر بعد ذلك وعاد الى إنجلترا .
عندئذ فكر الرجل فى أن يذهب الى مكان يعرفه فى الريف البعيد . واندفع , تحقيقاً لهذا الغرض , الى عربة
قطار بأسرع ما استطاع . وما أن وصل الى المحطة , حتى ذهب فى الحال , متخفياً , الى الفندق . وكان
قد جلس وقتاً طويلا , يشرب ويفكر على ضوء الشمس , عندما قفز فجأة وأخذ يتسمع فى رعب
وخوف .

وأحس بهزة في الأرض وسمع صيحات بعيدة , وشعر بضوء خافت يقترب , سرعان ما تحول الى عينين حمراوتين تطلقان الشرر , ثم شعر بحركة قوية لجماعة مزججة كبيرة العدد تزحف الى الأمام . ثم وهبت رياح قوية عاتية , اعقبها ضجة قطار يقترب من المحطة . ووصل القطار وقام , وأخذ هو ينتظر قطاراً آخر , ثم آخر .

وظل راقدى يتسمع في فراشه , ولما شعر باهتزاز الارض , نهض واتجه الى النافذة ليراقب . واستمرت تلك المراقبة طوال الليل .

وما أن طلع الفجر , حتى سال الرجل الذى دخل عليه بالشموع :

- " فى أى وقت قلت أنى يجب أن اغادر هذا المكان ؟ " .

- " حوالى الساعة الرابعة والربع , يا سيدى " , أجاب الرجل : " ربما لن يسافر معك أجد من هنا يا سيدى . يوجد هنا سيدان , ولكنهما ينتظران القطار الذاهب الى لندن " .

- " أظنك قلت أنى لا يوجد هنا أحد " قال كاركر , وهو ينظر اليه فى شك .

- " لقد حضر السيدان ليلا , يا سيدى " قال الرجل .

فارتدى كاركر ملابسه بسرعة , ودفع حساب الفندق وخرج الى محطة السكة الحديدية .

وما أن دفع أجر السفر , وأخذ يسير على الرصيف جيئة وذهاباً , حتى رأى الرجل الذى كان هارباً منه , ولم تلبث أن تقابلت عيونهما . وفى غمرة خوفه ودهشته , زلت قدمه , وسقط كاركر على القضبان فى أسفل .

وسمع صيحة - وأحس بالأرض تهمز - وعرف أن القطار قادم - وأطلق صرخة هائلة - ثم رأى العينين الحمراوتين فوقه مباشرة - ولم يلبث أن أمسك فى عجالات القطار , وقُلب المرة تلو المرة , ثم دفع , ميتاً على القضبان .

الفصل الحادى والثلاثون " زفاف آخر "

- أخذ محل صناعة الأدوات يضحج بالحركة والحياة . وأخيراً حضر مستر توتس وسوزان .
- " أوه , يا حبيبى الحلوة الجميلة مس فلوس ! " صاحت سوزان نبير , وهى تندفع الى حجرة فلورنس " كيف أتصور أن اجدك هنا بلا منزل خاص بك " .
- " سوزان , يا عزيزتى الطيبة سوزان " . قالت فلورنس .
- " ليباركها الله . يا لى أنا التى كنت خادمتها عندما كانت طفلة صغيرة ! هل سوف تتزوجين حقيقة ؟ "
- " من قال لك هذا ؟ " سألت فلورنس .
- " يا لله ! ذلك المخلوق البرئ , توتس " أجابت سوزان .
- ومر الوقت سريعاً جداً , حتى حلت الليلة السابقة على اليوم المحدد للزفاف , وكانوا جميعاً مجتمعين بالحجرة العلوية فى الدكان , عند ما صاح الكابتن فجأة فى زئير عال " ها يا سول جلز ! " .
- ثم اندفع الى حضن الرجل العجوز الذى قد دلف الى الحجرة .
- " سول جلز , سول جلز , أين كنت , وماذا كنت , وماذا تفعل طيلة ذلك الوقت , يا ولدى العجوز ؟ قال الكابتن وهو يتسم فى سعادة .
- " أنا متعب , ومذهول حتى أننى لا أستطيع الليلة أن اقول شيئاً كثيراً " أجاب سول جلز .
- وذهبت فلورنس الى فراشها مبكراً فى تلك الليلة , ولكن بعد أن سمعت العم سول سول ووالتر يسأل كل منهما الآخر أسئلة كثيرة عن رحلاتهما والأخطار التى قابلاها .
- " مستر توتس " قال توتس , وهو يفترق عنه " سوف نتقابل باكر صباحاً . أليس كذلك ؟ " .
- " أيها الملازم والترز " أجاب توتس , وهو يشد على يده بجمرة " سأكون حاضراً بالتأكيد " .
- " أرجو أن تعرف أننى مقدر جداً لجميلك " قال والتر . " فلقد جعلتنى فلورنس أعدها بأن اخبرك أنها تعزك أعزازاً عميقاً , وأنها لن تجد صديقاً تقدره أكثر منك . هل تريد أن احمل لها أية رسالة منك ؟ "
- " قل لها يا والترز " أجاب مستر توتس . أننى سعيد جداً بأن اعرف أنها تزوجت الرجل الذى تحبه ويجبها " .
- وفى الصباح التالى تزوج والتر بفلورنس .

ومرت أيام قلائل , ثم خرجت ضخمة الى عرض البحر . وفي منتصف الليل جلس العروسان على ظهرها منفردين .

- " أننى اذ اسمع صوت الأمواج " قالت فلورنس " وأجلس أراقبها تحتاح عقلى أفكار كثيرة . أنها تجعلنى أفكر كثيراً فى ... "

- " فى بول , يا حبيبتى ... أعرف هذا "

بيد ان الامواج كانت تجعلها تفكر فى بول وفى والتر أيضاً . كانت الأصوات طى الأمواج تهمس لها دائماً بالحب , الحب الأبدى الذى لا حدود له .

الفصل الثانى والثلاثون "الجزء"

وفى ذات عصر من عصارى الصيف , بعد أنقضاء عام على تلك الحوادث , كثر الهمس فى محيط المشتغلين بتبادل السلع حول وقوع هبوط ضخيم . وفى اليوم التالى , انتشرت الأنباء بأن شركة دمبى وولده قد توقفت عن أعمالها . وفى الليلة التالية ظهرت قائمة بأسماء المفلسين , وعلى رأسها اسم مستر دمبى .

لقد حلت التغيرات مرة أخرى بهذا المنزل العظيم . انه لا يزال متزلاً عظيماً , ولكنه مفلس خرب على الرغم من ذلك .

وبعد أيام قلائل , بدأ أناس غرباء يفتدون الى المنزل , ويعقدون المواعيد مع بعضهم البعض فى غرفة الطعام . وأخيراً قبل أن يبعأ سوف يجرى .

والآن ذهب كل شئ . ولم يبق أحد من المحتلين الغرباء . وتُرك المنزل خراباً تجرى منه الجدران . ان بوللى , مربية بول السابقة التى عادت لترعى مستر دمبى , وحيدة الآن فى المنزل الخاوى . وبينما الليل محيم , وهى جالسة فى حجرة مديرة المنزل , سمعت قرعاً على باب البهو . أهما مس توكس وعيناها مجرتان . - " أوه , يا بوللى " قالت مس توكس " لقد تسلمت الرسالة التى تركت لى . الأ يوجد هنا أحد سواك ؟ " .

- " آه ! لا احد اطلاقاً " قالت بوللى .

- " وهل رأيته ; " همست توكس .

- " ليبارك الله " أجابت بوللى " كلا . يقولون . لى أنه لا يغادر غرفته أبداً " .

- " هل هو مريض ؟ " سألت مس توكس .

- " كلا يا مدام " أنه كما عرف صحيح البدن , غير أنه متعب العقل . لابد وأنه معقل العقل جداً , يا له من مسكين " .

وتأثرت مس توكس حتى أنها لم تقو على الكلام . ثم عادت مبكرة فى اليوم التالى . وتعودت بعد ذلك على الحضور يومياً الى منزل مستر دمبى حاملة معها بعض أنواع الطعام الشهية لتُحمل الى غرفته . وكانت تقضى معظم وقتها فى ذلك البيت الخرب , غير راغبة الا فى الأخلاص لصاحبه الذى أحنى عليه الدهر , ولا يعرف أحد من أمرها شيئاً سوى امرأة واحدة فقيرة بسيطة هى بوللى .

غير أن الميجور عرف ذلك أيضاً , وكاد أن يموت من الضحك . وكان يقول لنفسه دائماً , " لعنة الله على تلك المرأة , لقد ولدت عبيطة بلهاء " .

وماذا عن دمى المسكين , كيف كان يقضى وقته وحيداً ؟ " دعه يتذكر ذلك في تلك الحجرة في السنوات القادمة ! " لقد تذكر ذلك فعلاً . ولكنه كان عبثاً ثقيلاً على عقله الآن , أثقل من كل شيء آخر مما وقع له .

لقد كان يتذكرها , كما كانت ليلة ان عاد هو وعروسه الى المنزل . وتذكر جميع أحوالها وتصرفتها خلال كل ما وقع في المنزل المهجور من أحداث . انها هى فقط , التي كانت تتطلع إليها دائماً بابتسامتها الحبة الرقيقة . أنها لم تتغير أبداً ازاءه , كما لم يتغير هو أبداً ازاءها في معاملته القاسية ؟ - ثم ... ثم فقدتها بعد ذلك .

وفي كبرياته - لأنه كان لا يزال متكبراً - ترك العالم ينسلخ عنه في سهولة ويسر , لم يكن يفكر في رقيق ما في بؤسه وشقائه , الا تلك التي طردها بعيداً . كان يعرف دائماً انها كانت سوف تحبه الآن أكثر من أى وقت آخر , وكان يجلس مفكراً هكذا , في وحدته , من ساعة الى اخرى . غير أنه كان لا يزال شديد الكبرياء , حتى أنه لو كان قد سمع صوتها في الغرفة المجاورة , لما تقدم يدعوها اليه . وخرج من وحدته ذات مرة في منتصف الليل , وصعد في خفة الى الدور العوى , والمصباح في يده . وكان يبكى منكس الرأس وهو يصعد الدرج . وتوقف متطلعاً : لقد لاح له مرة آخر خيال فتاة رقيقة تغنى , وهى تحمل طفلاً في ذراعيها .

وتجولاً خلال الغرف , التي كانت جميلة يوماً له , ثم أضحت عارية كئيبة . ان هنا ذكريات كثيرة . ولكنه تملص منها جميعاً , ولم يعد يذكر الا طفليه , بو وفلورنس , في بؤس , وألم , وضعف , وشغف . !!! .

وفي الحجرة العتيقة المرتفعة , حيث كان الفراش الصغير , شرع يبكى وحيداً منفرداً . ولما طلع النهار , حبس نفسه في غرفته مرة أخرى . قم لم يلبث أن هس وسار الى الغرفة في الغرفة المجاورة . ثم عاد بشئ مخبئ في صدره . وأخذ يتطلع الى أسفل الباب ويفكر .

كان يفكر في أن الدماء لو انحدرت من اسفل الباب الى البهو في الخارج , فأنها سوف تأخذ وقتاً طويلاً حتى تصل الى هناك , وحينئذ سوف لا يدرك أهل المنزل الرجل الجريح الا ميتاً , أو على عتبات الموت . أن مستر دمى كان يفكر في الأنتحار !

وفجأة نهض مستر دمى , وبجه مرعب , واخرج الشئ الذكان قد خبأه في صدره غير أن صيحة أوقفته لحظئذ - صيحة عالية , محبة ومرحة - وتلفت مستر دمى ليجد أبنته راكعة عند قدميه .

- " بابا ! يا عزيزى بابا ! سامحنى ! لقد عدت أطلب الغفر راحة على قدمى . لا أستطيع أن اكون سعيدة مرة أخرى دون الحصول على عفوك ورضاك " .
سوار متعثراً الى كرسيه . وأحس بما تلف ذراعيها حول عنقها , وتضع ذراعيها حول عنقه . وأحس بقبلاهما على وجهه , وأحس - يا لله !! أحس بكل ما ارتكبه فى حقها بعمق هائل وألم شديد !! .
" بابا , يا حبيبى , لقد عدتُ أما ...ولدى طفل سوف يدعو والتر قريباً بالأسم الذى أدعوك أنا به - ولما وُلد , ولما عرفت كم أحبه , أحسست بخطأى فى تركك . سامحنى , يا بابا العزيز !
وما أن التصقت به , حتى قبلها , ورفع عينيه قائلاً " اوه يا الهى سامحنى انا لأننى محتاج لعفوك كثيراً جداً " .

ثم خفض رأسه مرة أخرى واحتضن ابنته , واخذ بيكى . ولم يكن هناك صوت فى المنزل لوقت طويلاً جداً , وظلاً متعانقين فى ضوء الشمس البهيج , الذى زحف الى داخل الغرفة مع فلورنس .
وكطلب ابنته , ارتدى ملابسه للخروج . وساراً معى فى خطوات ضعيفة , وهو يتطلع الى الورا , مرتعشاً , نحو الحجر التى حبس نفسه فيها رداً طويلاً من الزمن , حتى أتيا الى العربة التى كانت تنتظر عند الباب .

وعندئذ بكت مس توكس وبوللى , اللتان طانت تراقبا كل ذلك من مخبأهما .
وقالت مس توكس , ودموع الفرح فى عينيها .
- " وهكذا اضحت الأبنة , يا بوللى . بعد كل شئ , هى " دمبى وولده " حقاً .

الفصل الثالث والثلاثون " ما قد يذكر قبل الزواج "

بعد أن رأى كابتن كتل فلورنس وطفلها , وبعد أن ثرت طويلاً مع زوجها والتر , خرج ذات يوم يتمشى . وما أن أنعطف عند ركن الشارع , حتى وقف فجأةً بلا حراك , وفقد قدرته على الكلام , حين رأى المشهد الذى يتجه نحوه .

فأمام الجماعة مباشرة كانت تسير تلك المرأى العنيدة العاتية , مسز ماكستينجر , وقد شبكت الى صدرها ساعة ضخمة , عرف الكابتن فى الحال أنها ساعة صديقة مستر بنسى . وورائها مباشرة كان يسير ذلك البحار الحكيم " أى مستر بنسى " ووجهه كوجه سجين تعس لا حول له ولا قوة . وخلفهما ظهر أطفال مسز ماكستينجر الصغار . وخلف كل أولئك سارت سيدتان يلوح على وجهيهما مظهر مخيف من الصرامة والبأس , وتقودان بينهما رجلاً قصيراً يرتدى قبعة طويلة . وفى الخلف كان هناك غلامٌ بنسى يحمل المظلات . وكانوا جميعاً يسرون فى نظام . كان واضحاً انه موكب من مواكب التضحية والأستشهاد , وأن الضحية كانت مستر بنسى .

وأول خاطر عرض للكابتن كان أن يجرى بعيداً , ولكن الجماعة كانت قد عرفته , وأدركته . - " حسناً " يا كابتن كتل , مسز ماكستينجر " هذا لقاء مشهود حقاً ! " أننى لا احمل نحو مشاعر سيئة , يا كابتن كتل . أننى أرجو أن اتقدم الأن الى هيكل الكنيسة بروح طيبة " . ولم يلتفت بنسى التعس ذات اليمين أو ذات اليسار , ولم يتطلع الى عروسه أو صديقه , بل كان ينظر أمامه مباشرة الى لا شئ .

- " يا كابتن كتل " قالت مسز ماكستينجر " اذا اردت ان ترى صديقك للمرة الأخيرة كوجل أعزب , فإنه يسرنا أن تأتى معنا الى الكنيسة " , ثم أردف وهى تشير الى احدى السيدتين فى الخلف " توجد هنا سيدة , يا كابتن كتل , تسرها حمايتك " .

وتقدمت السيدة المشار اليها الى الأمام فى الحال , وأمسكت بالكابتن وهى تأمر بالسير فى صوت خشن قوى , قائلة أنه لا وقت لديهم يحتمل الأضاعة .

ولم يع الكابتن او يدرك تماماً حديث رفيقته فى بادئ الأمر , لانشغاله بأمر صديقه المفاجئ . ولخوفه على نفسه فى ذات الوقت , اذ كان يخشى أن يزوج هو أيضاً عنوة وأقتداراً , ولكنه ما لبث أن عرف , بعد أن هدأت اعصابه قليلاً , انها أرملة رجل كان يُدعى مستر بوكم .

ولقد لاحظ الكابتن , طيلة ذات الوقت أن مسز بوكم ترأقب العريس باستمرار لئلا يهرب . كما كانت السيدة الاخرى أيضا , وزوجها الرجل القصير ذو القبعة الطويلة , يشتر كان فى حراسته بشكل ظاهر . وبذل الكابتن محاولات كثيرة للتحدث الى بنسى , غير أنها فشلت جميعاً . ثم لم يلبث أن وصل الموكب الى الكنيسة .

وهنا وجد الكابتن الفرصة ليهمس فى أذن العريس :

- " جال بنسى , هل تفعل هذا الآن على محض أرداتما ؟ " .

- " كلا " أجاب مستر بنسى .

- " ولماذا تفعله اذن , يا بنى ؟ " سأل الكابتن .

ووقف بنسى يتطلع الى الأمام بوجه جامد لا يتحرك , ولم يلفظ جواباً .

- " لماذا لا تهرب ؟ " سأل الكابتن .

- " وما جدوى ذلك ؟ " اجاب الرجل التعس " أنها سوف تمسكنى ثانية " .

- " حاول " أجاب الكابتن " نفاءل ولا تبتئس ! أنها الآ فرصتك . اهرب يا جالك بنسى ! " .

ولكن بنسى لم يهرب حينئذ ولم يهرب أبداً , لان مسز ماكستينجر تزوجته مباشرة بعد ذلك .

وعاد الموكب مرة أخرى الى حى " برج " حيث كانت هناك وليمة الزواج فى أنتظاره . وسحب الكابتن

الجماعة حتى باب المتزل , غير انه يلبث أن ولى هارباً دون الدخول . ذلك أن قلقه أخذ يتزايد من ناحية

مسز بوكم , التى كانت قد تفرغت لصحبته بعد أنتهاء مراسيم الزفاف , وشرعت تُبدى به شغفاً

واهتماماً .

الفصل الرابع والثلاثون "الأعطاف"

- " وهل والدك مريض جداً , يا حبيبتي فلوى ؟ " قالت سوزان التي كانت قد وصلت للتو مع مستر توتس , الذي أصبح الآن زوجها .

- " أنه مريض جداً . ولكن , ما هذا , يا عزيزتي سوزان ؟ " قالت سوزان , وهي تلمس ملابسها في دهشة " أليست هذه هي ملابسك القديمة , يا عزيزتي ؟ قبعتك القديمة , وتجميعات شعرك , وكل شيء ؟ "

- " يا عزيزتي مس دمبي " قال مستر توتس " سوف أشرح لك الأمر . لقد كانت سوزان تقول دائماً أنه متى عدت الى منزلك فألها ستأتى اليك فى نفس املايس التي اعتادت أن تخدمك فيها . ياعزيزتي مس دمبي , ألها سوف تكون وصيفتك مرة أخرى , ومربيتك , وكل ماكانت لك فى الماضى , واكثر " . وكانت فلورنس فى حاجة الى العون . وحاجة أبيها الى ذلك كانت أقوى وأشد . لقد كان الموت يخف بسريره .

وكانت فلورنس مع أبيها دائماً . وكان يميزها بوجه عام , على أن أفكاره كانت كثيراً ما تشرذ بعيداً , فيهنذى , ويخاطبها كما لو كان ولده قد مات منذ وقت قصير . وكان يحجب وجهه ويكسى , ويمد يده النحيلة الى خارج الفراش .

وفى بعض الأحيان كان يصبح " أين فلورنس ؟ لقد افتقرت عنها طويلا حتى أنني أكاد لا اعرفها ! " وظل كذلك أياماً وأسابيع . زأخيراً هداً , وهو راقد على فراشه , يتكلم فى صوت خفيض . ثم بدأ بعد ذلك أنه يهتم بفلورنس ويفكر فى تعبها وكثيراً ما كان يهمس لها قائلاً : " اخرجى يا حبيبتي وتمشى فى الهواء الممتع الطلق . اذهبي الى زوجك الطيب القلب "

- " يا عزيزتي " قال والتر , " يوجد شخص فى أسفل يرغب فى مقابلتك " . ونزلت فلورنس مع زوجها . وما أن رأى السيد الذى يجلس فى حجرة الجلوس الصغيرة الممتعة . حتى تذكرت ابن العم فينكس واضطربت .

- " يا حبيبتي " قال والتر " لا شئ هناك فى الامر اكثر من هذا " .
سوف تركبين الى لندن مع هذا السيد , ومعى , وتقومين بزيارة فى مكان ما " .
- اذا كان بابا لا يزال نائماً , فسوف أذهب فى الحال " أجابت فلورنس .

وقطمت بهم العربة حوالى ثمانية أميال , ثم وقفت أخيراً امام ذلك المتزل فى شارع برووك حيث أحتفل بالزواج الثانى التعس لوالدها . وخرج مستر فينكس وقدم يده لفلورنس .

- " هل ستأتى يا والتر ؟ " سألت فلورنس .

- " كلا . سأبقى هنا . لا تخافى . لا شئ يخيف فى الامر يا حبيبتي فلورنس " .

وصعدت فلورنس الدرج المظلم , وهى ترتعش , ثم وقفت على باب حجرة الأستقبال . وهنا الى جوار النافذة , كانت سيدة تجلس الى منضدة , ورأسها معتمدة على يدها . وأدرات السيدة رأسها .

- " يا للسماء ! " قالت هى " ما هذا ؟ " .

كانت الآلام والكبرياء , والمشاعر العاصفة قد أضفت ذلك الوجه , ولكنه كان وجه ادث , ولا يزال جميلاً ذا رونق وجمال .

وانفجرت فلورنس باكية وهى تصيح من أعماق قلبها " أوه , ماما , ماما , لماذا نتقابل هكذا ! لقد أتيت الآن من عند فراش بابا المريض . نحن لا نفترق الآن ولن نفترق أبداً . اذا كانت تريدين أن أساله الصفح لك يا ماما , فسوف أفعل . أننى متأكدة من أنه سيمنحه الآن لو طلبت اليه ذلك " .

ولم تجب ادث بكلمة واحدة .

- " أوه , صلى الله " صاحت فلورنس رابعة على قدميها الى جوارها " صلى الله يا ماما لكى يغفر لك هجرك لبابا ! " .

وقال ادث ذراعيها حول رقبتها , وصاحت قائلة :

- " فلورنس ! يا ملاكى الطاهر ! قبل أن يتملكنى عنادى مرة ثانية وُخرسنى عن القول , صدقيني , قسما بروحى , أننى برئية " .

وكانت تبكى بمرارة .

- " ماما " قالت فلورنس " بابا قد فقد ثروته . ولقد كان على وشك الموت , وربما لا يشفى حتى الآن . هل هناك أية كلمة أستطيع أن احملها اليه منك ؟ " .

- " هل قلت لى " قالت ادث " انك أصبحت عزيزة لديه ؟ " .

- " نعم " قالت فلورنس بصوت مرتعش .

- " قولى له أننى آسفة أننا تقابلنا يوماً ما " .

- " هل أقول له " سألت فلورنس " أنك حزنت لما قاساه من ألام ؟ " .

- " كلا " أجابت ادث " لن احزن اذا كانت هذه الألام قد علمته أن ابنته مخلوقة غالية جداً بالنسبة اليه . اذا اذا كان قد تعلم هذا الدرس , يا فلورنس , فهو نفسه لن يحزن لما نزل به " .

وبدت وكأن غضبها قد ذهب الى غير رجعة , ثم تجمعت الدموع في مآفيها .
- " كلما اشتد حبه لفلورنس " أضافت ادث " قلت كراهيته لي . أنني حينئذ سوف أحاول أن اغفر له
دوره فيما حدث . ودعيه يحاول هو أيضاً أن يغفر لي دوري في ذلك . والآن , وداعاً , يا حياتي ! .
وضمت فلورنس الى حضنها . وبدت وكأنها تسكب كل ما لديها من حب المرأة وحنانها دفعة واحدة .
- " عندما تركبني في هذه الحجرة المظلمة " قالت ادث , " فكري في أنك تركبني في القبرة . أذكرى
فقط ما كنت عليه يوماً ما . واذكري أنني كنت احبك " .
وغادرت فلورنس , ولم تر وجهها بعد ذلك , ولكن ذكرى حبه وقبلاتها ظلت باقية في قلبها

الفصل الأخير " النهاية "

أن مستر دمبى الآن رجل أبيض الشعر , يحمل وجهه آثار ثقيلة الموموم والمعاناة : غير أنها آثار زوبعة مرت الى غير رجعة , وسطع في أثرها مساء واضح المعالم . أن الخطط والأفكار الطموحة لم تعد تورقه لقد انحصر فخره وزهوه في ابنته وزوجها .

وأن أيام الخريف تشرق الآن , وكثيراً ما يرى الناس , على شاطئ لبحر , سيده صغير السن , ورجلاً أبيض الشعر – ومعهما , أو بالقرب منهما , يوجد دائماً طفلان " ولد وبنت " . ويسير الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض مع الولد الصغير , ويلاحظه , ويراقبه , كما لو كان هو غرض حياته كله . وحين جلس هذا الطفل الى جوار الجد , ويتفرس في وجهه , ويلقى عليه بالأسئلة التي تشغل عقله الصغير , كثيراً ما يتناول الجد يده النحيلة , ويقيها في يده , وينسى أن يجيبه . وعندئذ يقول الطفل :

" ماذا يا جدى , ! هل قد أصبحت أنا شبيهاً بعمى الصغير السكين ! " .

- " نعم , يا بول . ولكنه كان ضعيفاً أما انت فقوى جداً " .

وكلما سار سوياً , الجد والطفل , سارت خلفهما قصة الحب الشديد بينهما , وتبعتهما في كل مكان . ولكن ليس غير فلورنس , من يعرف مقدار حب الجد العظيم للبت الصغيرة . أن قصة هذا الحب لايتداولها الناس , لان الرجل العجوز يكتنمها في قلبه . أنه لا يهتمل أن يراها جالسة بمفردها . وهو يتسلل في خفة ليلا ليتطلع اليها في نومها , ويسره جداً ان تاتي وتوقظه في الصباح . أنه مغرم بما جدى , ويظهر لها أروع آيات الحب حين لا يكون أحد قريباً منهما . وعندئذ , تقول الطفلة أحياناً :

- " يا جدى العزيز , لماذا تبكى وأنت تقبلني ؟

فيجيبها قائلاً فحسب :

- " فلورنس الصغيرة ! يا فلورنس الصغيرة " .

ثم يزيح في رقة وحنان حصلات الشعر التي تحجب عينيها .

الفهرس

2	الفصل الأول "دمبى وولده"
5	الفصل الثانى " بعد الجنازة "
7	الفصل الثالث " خسارة بول الثانية "
11	الفصل الرابع " نظرة سريعة على منزل مس توكس , وأحوالها العاطفية "
13	الفصل الخامس " التقدم التالى لبول , ونموه , وشخصيته "
17	الفصل السادس " سول جلى فى مأزق "
19	الفصل السابع " بول يعرف قيمة المال "
23	الفصل الثامن " مدرسة الدكتور بلمبر "
28	الفصل التاسع " أعمال المكتب "
30	الفصل العاشر " بول يعود الى منزله "
32	الفصل الحادى عشر " ما كانت تقوله الأمواج دائماً "
34	الفصل الثانى عشر " الأب والبنت "
38	الفصل الثالث عشر " والتر يرحل بعيداً "
40	الفصل الرابع عشر " وجوه جديدة "
44	الفصل الخامس عشر " أنباء جديدة عن العم سول "
47	الفصل السادس عشر " أدث المتكبرة "
50	الفصل السابع عشر " تغييرات فى المنزل "
51	الفصل الثامن عشر " قبل الزواج "
55	الفصل التاسع عشر " الزفاف "
56	الفصل العشرين " أنباء عن تحطم سفينة "
58	الفصل الواحد والعشرون " الزوجان السعيديان "
61	الفصل الثانى والعشرون " حفلة تدشين المنزل "
63	الفصل الثالث والعشرون " مسز ماكستينجر تجد كابتن كتل "
65	الفصل الرابع والعشرون " علاقات منزلية "
68	الفصل الخامس والعشرون " انفصال "
71	الفصل السادس والعشرون " مستر كاركر , الوكيل الموثوق به "
73	الفصل السابع والعشرون " هروب أدث "
77	الفصل الثامن والعشرون " هروب فلورنس وأكتشاف عجيب "
81	الفصل التاسع والعشرون " صديق صادق "
84	الفصل الثلاثون " الهارب "
87	الفصل الحادى والثلاثون " زفاف آخر "
89	الفصل الثانى والثلاثون " الجزاء "
92	الفصل الثالث والثلاثون " ما قد يذكر قبل الزواج "
94	الفصل الرابع والثلاثون " الأنعطاف "
97	الفصل الأخير " النهاية "
98	الفهرس

Source: www.liilas.com

To PDF: www.al-mostafa.com